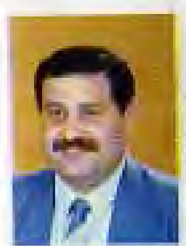

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
الأستاذ
135
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الأستاذ

- هل يستعيد (أدهم) وعيه بعدما أصابه وسط جليد (موسكو)؟!
- من القائد الجديد لمنظمة (المافيا) الروسية؟ وماخطته للانتقام؟!
- ترى كيف ينحسم الأمر هذه المرة، ومن ينتصر في النهاية.. الشيطان أم.. (الأستاذ)؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل.. (رجل المستحيل)..



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

135



رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حية، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- أنياب الذئب..

ران صمت مهيب، على حجرة الاجتماعات الرئيسية، فى مبنى المخابرات العامة المصرية، فى ذلك الصباح، عندما انهمك فريق من كبار ضباط الجهاز، برئاسة مديره شخصيًا، فى مطالعة ذلك التقرير الأخير، الوارد من (موسكو)، بشأن عملية تصفية قيادات (المافيا) الروسية الأخيرة(*)، قبل أن يقطع مدير المخابرات ذلك الصمت، وهو يرفع رأسه إلى الرجال، قائلاً فى حزم:

- ما رأيكم ؟!

أومأ أحد الرجال برأسه، قائلاً:

- أرى أن خسائرنا فى هذه العملية تفوق انتصاراتنا بكثير.

اندفع آخر يهتف:

(*) راجع الرواية السابقة (الأبطال).. المغامرة رقم (١٣١).

ـ على العكس .. لقد حطمنا رأس الأفعى، وقضينا على (إيفان إيفانوفيتش)، زعيم (المافيا) الروسية، ونسفنا مقر قيادته نسفًا، وشتتنا رجاله كلهم، أو من تبقى منهم، وكشفنا الشبكة الفاسدة، المتعاونة معه، فى قلب الحكومة الروسية، ومنعنا صفقة أسلحة رهيبة من دخول (مصر)، ومن وقوعها فى أيدى المنظمات الإرهابية، كما أحبطنا محاولة شيطانية لاغتيال سيادة الرئيس .. ماذا يكون هذا، لو لم نصفه بالانتصار الساحق؟!

هزّ الأول رأسه، قائلاً:

ـ ربما كان انتصارًا، ولكنه ليس ساحقًا بالتأكيد، فلا تنس أن الجزء الأخير من العملية قد تحوّل إلى مواجهة مباشرة عنيفة، سالت فيها الدماء أنهارًا، وأصبح الصراع بأوراق مكشوفة، تعرّت بوساطتها وجوه رجالنا، الذين اعتقلتهم السلطات هناك؛ لقيامهم بعملية عسكرية غير قانونية، داخل الحدود الروسية، مما أدى إلى مشكلة دبلوماسية، لم تنته حتى هذه اللحظة .. أضف إلى هذا أننا خسرنا أفضل ضباطنا على الإطلاق .. سيادة العميد (أدهم صبرى).

قال ثالث فى حزم:

ـ المشاكل الدبلوماسية أمر معتاد، فى معظم العمليات المشابهة، وهى تنتهى دومًا بتبادل بعض الاعتراضات والاعتذارات المكتبية، أما بالنسبة لرجالنا، فالجهود الدبلوماسية أيضًا جعلت الأمر يبدو كحالة دفاع شرعى عن النفس، خاصة وأن التحقيقات والتحريات الرسمية قد أثبتت أنه قد تم اختطافهم من (أمريكا الجنوبية)، وإحضارهم قسرًا إلى (موسكو).

تراجع المدير، وهو يقول:

ـ كان هذا جزءًا من الخطة العبقرية لـ (ن ـ ١) ..

قال رجل رابع، فى توتر ملحوظ:

ـ المشكلة أن سيادة العميد (أدهم) لم يلتزم بالخطة، التى وضعها هو نفسه، فلم يكد يعلم أن فريقه فى خطر، حتى ترك كل شىء، وهرع إلى الجليد الروسى، لينسف كل شىء بلا هوادة، وهذا يتنافى مع أبسط قواعد عمل المخابرات.

اعتدل المدير ، قائلاً فى هدوء :

ـ هذا صحيح نظريًا ، ولكن لو أنك أحد رجاله ، الذين خالف كل القواعد والأعراف والقوانين ، وجازف بحياته نفسها ، من أجل إنقاذهم ، لتغيّر رأيك فيما فعله حتمًا .

احتقن وجه الرجل ، وهو يقول :

ـ إننى أتحدّث عن القواعد .

مال المدير إلى الأمام ، قائلاً فى حزم :

ـ وأنا أتحدث عن الانتماء .

احتقن وجه رجل المخابرات أكثر ، فى حين عاد المدير يتراجع فى مقعده ، ويستعيد هدوءه ، وهو يكمل :

ـ كلنا نعلم أن (ن ـ ١) هو أفضل ضابط مخابرات فى جهازنا ، فى الوقت الحالى ، على الرغم من تجاوزه القواعد العامة لعمل أجهزة المخابرات ، فى بعض الأحيان ، وعلى الرغم من مخالفته لكل الأعراف ،

بكونه شخصية معروفة لكل أجهزة المخابرات ، وكل المنظمات الإجرامية ، ومنظمات الجاسوسية الخاصة فى العالم .

وابتسم لحظة فى شرود ، قبل أن يتابع ، فى شىء من الحماسة :

ـ ولكن المدهش أن الشهرة تكون لها فوائدها فى بعض الأحيان ، فلأن (ن ـ ١) شخصية معروفة ، على النطاق العالمى ، لم تحاول السلطات الروسية توجيه أية اتهامات له ، بل ولم تعلن حتى عن وجوده فى (روسيا) ، ولقد اهتم رجل المخابرات الروسى ، وعدوه السابق (سيرجى كوربوف)(*) بأمره ، على نحو يدعو للدهشة والاحترام فى آن واحد ، وربما يعود إليه الفضل ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فى بقاء (أدهم) على قيد الحياة ، حتى هذه اللحظة ، ثم إن الرئيس الروسى كان رجل مخابرات سابقًا أيضًا ، وهو يدرك أهمية وكفاءة (أدهم) ، لذا فقد أمر ببذل

(*) راجع قصة (سم الكوبرا) ... المغامرة رقم (٥١)

كل جهد ممكن ، لإسعافه ، وإنقاذ حياته ، وعلاجه من إصاباته العنيفة ، وبناء على هذا ، تم نقل (أدهم) إلى مستشفى خاص ، يتبع القاعدة الفضائية الروسية ، لعلاجه بأسلوب خاص ، كان يقتصر فيما مضى على علاج رواد الفضاء ، وكبار رجال الدولة فحسب ، وهناك فريق طبى كامل يشرف على علاجه ، بالمشاركة مع شقيقه الدكتور (أحمد صبرى) ، كما أن السيد رئيس جمهوريتنا قد أمر بإرسال فريق طبى مصرى خاص ، يضمّ عددًا من كبار الأخصائيين ، فى مختلف فروع الطب ، للمعاونة فى علاجه هناك ، والتقارير الأخيرة تقول : إنه يستجيب لذلك الأسلوب الجديد على نحو مبشّر ، ولن يمضى وقت طويل ، حتى يستعيد صحته وكفاءته .

هتف بعضهم فى لهفة :

ـ حقًا ؟!

ابتسم المدير ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، قائلاً :

ـ نعم .. حقًا ؟!

تبادل الكل نظرات ارتياح سعيدة ، وغمغم أحدهم :

ـ حمدًا لله .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى اندفع آخر يسأل :

ـ وماذا عن الباقين ؟!

سأله المدير فى اهتمام :

ـ أتقصد أفراد الفريق ؟!

أجابه رجل المخابرات فى سرعة :

ـ بالطبع .. إننى أتساءل : متى يمكننا إعادتهم إلى هنا ؟!

تنهّد المدير فى عمق ، ولوّح بكفه ، وهو يتراجع فى مقعده أكثر ، قائلاً :

ـ هذا يحتاج إلى بعض الوقت بالتأكيد ، ولكن وفقًا لآخر التقارير ، التى أرسلها سفيرنا هناك ، أعتقد أن الأمر سينتهى خلال أيام قليلة .. أسبوع على الأكثر .

بدا الارتياح على وجوه الجميع ، وغمغم أحدهم :

ـ رائع .

ثم تساءل آخر فى اهتمام :

ـ وماذا عن زميلتنا (جيهان) ؟!

هزّ المدير رأسه فى أسى ، قائلاً :

ـ حالتها سيئة جداً للأسف ، حتى إن نقلها إلى (القاهرة) ليس ممكنًا ، بأىِ حال من الأحوال ، وهى ترقد الآن فى إحدى وحدات العناية الفائقة ، فى مستشفى دونا (كارولينا) فى (نيويورك) ، أما الأخيرة فحالتها معقولة ، وهى تتحسَّن بسرعة ، وغضبها يتزايد فى كل يوم تقضيه فى المستشفى ، ولولا مصرع (إيفانوفيتش) ، وسط ثلوج (موسكو) ، لأشعلت هى النيران فى (روسيا) كلها .

تنحنح أحد الرجال ، قبل أن يسأل ، فى شىء من الحذر :

ـ وماذا عن (سونيا جراهام) ؟! هل تأكَّد مصرعها ؟!

مطّ المدير شفتيه ، وقال :

ـ انفجار سيارة (سونيا) كان من العنف ، حتى إن جسدها تمزَّق إربًا ، ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض أشلاء لم تحترق تمامًا ، بما يكفى لإجراء بعض الفحوص المتطوِّرة عليها ، لتحديد هوية الضحية ، على الرغم من أن كل الشهود قد أجمعوا على أن من لقيت مصرعها هى (سونيا جراهام) ، بشحمها ولحمها .

تمتم أحد الرجال :

ـ مع (سونيا) ، لايمكنك أن تتيقَّن أبدًا .

أشار المدير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .. ولهذا نتابع كل ما تتخذه الشرطة الفرنسية ، بمنتهى الدقة والاهتمام ، ولدينا أحد عيوننا هناك ، نظرًا لأنه ليس من الطبيعى ، من الناحية الرسمية ، أن نهتمّ بمصرع امرأة تحمل الجنسية

الفرنسية ، حتى ولو كانت يهودية الديانة ، ولكن من المؤكد أننا سنعرف كل ما سيتوصلون إليه أولاً فأولاً .

تساءل أحد الرجال في اهتمام :

ـ أصحيح أنهم قد عثروا على جزء من هاتف محمول ، مسجل باسمها ، بين حطام السيارة ؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنه أحد هواتف الأقمار الصناعية ، ولقد أثبتت التحريات أنها قد أجرت عبره محادثة قصيرة ، قبيل انفجار سيارتها مباشرة ، إلا أنه من العسير تحديد جهة الاتصال ، في هذا النوع من الهواتف .

سأله رجل آخر :

ـ ألا يثبت هذا أنها بالفعل (سونيا جراهام) ؟!

هزّ المدير كتفيه ، مجيبًا :

ـ دعنا نستعير عبارة زميلكم .. مع (سونيا جراهام) ، لايمكنك أن تتيقن أبدًا .

غلّفهم الصمت بضع لحظات ، بعد عبارة المدير الأخيرة ، قبل أن يقطع أحد الرجال هذا الصمت ، قائلاً في ارتياح :

ـ أعتقد أن كل هذا يعني أن عملية (موسكو) قد انتهت .

نطق عبارته ، فتبادل الكل نظرة صامتة ، قبل أن يقول المدير في بطء :

ـ من يدري ؟!

أطلقت عبارته هذه قنبلة من الصمت ، غلّفت المكان كله مرة أخرى ، وانطلق تساؤله يسري في عروقهم جميعًا في آن واحد ..

نعم .. من يدري ؟!

من ؟!

* * *

على الرغم من البرودة القارسة ، التي شملت (موسكو) كلها ، في تلك الفترة ، بدت تلك القاعة

الواسعة ، أسفل واحدة من البنايات الضخمة عتيقة الطراز ، أشبه بفرن ملتهب ؛ بسبب النيران الضخمة فى مدفأتها الكبيرة ، وسحب الدخان المنعقدة فوق رءوس فريق من الرجال ، الذين التفوا حول مائدة واسعة قديمة ، وهم يتناقشون ويتجادلون فى عصبية واضحة ، ويلوحون بأيديهم فى غضب جلى ، فى حين راحت مجموعة من الحسناوات يقدمن لهم الطعام والشراب ، فى أطباق بالغة الصغر ، وكئوس من الكريستال الخالص ، على نحو يوحى بأنهم لايتناولون طعامهم ، بقدر مايتلقمون ببضع لقيمات ، فى انتظار شىء ما ..

وبلهجة تحمل كل الغضب ، هتف أحدهم :

- هل سنترك هؤلاء المصريين ، بعدما فعلوه بنا ؟! لقد قتلوا زعيمنا ، وأفسدوا عملنا ، وحطموا هيبتنا فى العالم أجمع ، بالإضافة إلى أن الشرطة لديها الآن قائمة كاملة بأسمائنا ، وأسماء كل المتعاملين معنا ، وهذا جعلنا مجرد مجرمين مطاردين ، و ...

قاطعه صوت صارم قاس ، يقول :

- الشرطة لم تمثل أبدًا عقبة لنا .

استدار الكل بنظرة واحدة إلى مصدر الصوت ، وبدا وكأن قنبلة من الصمت المباغت قد تفجرت فى المكان ، حتى لتكاد تسمع صوت أنفاس الحاضرين ، عندما تقدم رجل طويل ، قوى البنية ، عريض المنكبين ، حليق الوجه ، أشقر الشعر ، إلى رأس تلك المائدة القديمة ، وخلع معطفه وقفازيه فى بطء ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، قبل أن يجلس على المقعد المنفرد عند القمة ، مكملاً ، وكأنه لم يتوقف لحظة واحدة :

- لقد اشترينا ولاءها من قبل ، والعرض مازال مستمرًا ، على الرغم من كل ماحدث .

تواصل الصمت بضع لحظات أخرى ، والكل يحدق فيه بشىء من الرهبة ، لم يلبث أحدهم أن اخترقها ، وهو يطلق زفرة عصبية ، قائلاً :

- تتحدث كما لو أنه من السهل أن تتجاوز أمرًا كهذا ! إن تلك القائمة ستظل أشبه بسيف مسلط على أعناقنا ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، التقط ذلك الطويل المهيب أسطوانة مدمجة من جيبه ، وألقاها فوق المائدة ، قائلاً فى صرامة :

ـ لم يعد هناك وجود لتلك القائمة .

حدّق الكل فى الأسطوانة المدمجة فى شك مبهور ، فاعتدل الطويل ، واستلّ من حزامه خنجرًا مخيفًا ، مال به إلى الأمام ، مضيفًا :

ـ إنها النسخة الوحيدة المتاحة .

ثم هوى بخنجره على الأسطوانة ، فحطمها فى عنف ، مكملاً :

ـ سابقًا .

انتفض أحدهم ، هاتفًا فى استنكار :

ـ ماذا فعلت أيها الأحمق ؟! إنها النسخة الوحيدة .

رفع الطويل عينيه إليه بحركة حادة ، قائلاً :

ـ أشكرك لتصديقى .

نطقها ، ثم ألقى خنجره بكل قوته ، ليغوص فى صدر الرجل حتى مقبضه ، وهو يضيف فى صرامة شديدة :

ـ ولكن إياك أن تنعتنى بالحمق .

جحظت عينا الرجل ، فى ألم ذاهل ، ورفع يده يمسك مقبض الخنجر ، ثم لم يلبث أن هوى على المائدة جثة هامدة ، فشهقت الفتيات فى رعب ، فى حين حدّق الرجال فى جثة الرجل ، ثم أداروا عيونهم الذاهلة المذعورة نحو الطويل ، الذى بدا شديد الهدوء والتماسك ، وهو يعود للجلوس على مقعده ، قائلاً :

ـ لقد نعتنى بالحمق .. أليس كذلك ؟!

حدّقوا فيه بذهول صامت ، فكرّر صارخًا فى غضب :

ـ أليس كذلك ؟!

هتفوا جميعًا فى آن واحد :

ـ بالتأكيد ..

عادت ملامحه تلين ، وهو يقول :

- لا أحد يصف (يورى إيفانوفيتش) بالحماقة .

ثم أشعل سيجارة قصيرة بدون مرشح ، ونفث دخانها ذا الرائحة النفاذة فى هواء القاعة الضبابى ، قبل أن يضيف فى صرامة :

- هؤلاء المصريون الأغبياء تصوروا أنهم قادرون على نسف (المافيا) الروسية ، بمجرد إسقاط زعيمها ، ولكن لا .. ربما كان شقيقى (إيفان) من الغباء ، بحيث يسمح لهم باختراقه على هذا النحو ، ولكننى لست كذلك !

ومال إلى الأمام ، وتألقت عيناه على نحو جنونى ، وهو يكمل :

- المنظمة ستبقى ، وستواصل سيطرتها على كل الأمور هنا .. فى (روسيا) ، وفى العالم أجمع مستقبلاً .. سنستعيد سطوتنا وهيبتنا ، عندما نثبت للكل أن قوتنا مازالت فى أوجها ، على الرغم من كل ما حدث .

سأله أحدهم فى صوت مبحوح منفعل :

- وكيف تفعل هذا ؟!

أخرج (يورى) من جيبه قائمة مطبوعة ، قائلاً :

- هذه قائمة بأسماء كل من هرعوا لخيانتنا ، وكشف أسرارنا ، وتطوّعوا بشهاداتهم للشرطة ، فور سقوط (إيفان) ورجاله .. عددهم يقترب من المائة .

وعادت عيناه تتألقان بذلك البريق الجنونى ، مستطردًا :

- ولقد اتخذت كل الإجراءات اللازمة ، لتصفيتهم جميعًا .

هتف أحد الرجال فى دهشة :

- جميعهم ؟!

أومأ (يورى) برأسه إيجابًا ، وقال بسادية مخيفة :

- نعم .. وخلال أربع وعشرين ساعة فحسب .

شهق الكل بأنفاس مبهورة ، فأضاف فى قسوة :

- ولكن هذا وحده لن يكفى .

غمغم أحد الرجال ، وهو يزدرد لعابه فى صعوبة :

ـ حقًا ؟!

ضرب (يورى) سطح المائدة بقبضته فجأة ، هاتفًا فى غلظة :

ـ نعم .. حقًا !

ثم التقط نفسًا عميقًا ، ليضيف بوحشية عجيبة :

ـ استعادة هيبتنا تحتاج إلى ضربة أكثر إحكامًا وقوة .

سأله أحد الرجال فى حذر :

ـ مثل ماذا ؟!

مال أكثر إلى الأمام ، وبدا أشبه بوحش كاسر ، وهو يجيب :

ـ أولئك المصريون ، الذين فعلوا كل هذا ، لايمكننا أن نسمح بعودتهم إلى بلادهم سالمين .

سأله أحدهم فى انفعال :

ـ وماذا سنفعل بهم ؟!

ازداد تألق عينيه على نحو رهيب ، وهو يقول :

ـ اتصالاتنا منحتنى بعض المعلومات المهمة عنهم ، فالشبان الثلاثة سيتم الإفراج عنهم مساء الغد ، وسيتم ترحيلهم فورًا ، تحت حراسة المخابرات الروسية ، أما ذلك الراقد فى مستشفى قاعدة الفضاء ، فسيبقى حتى يستعيد عافيته ، بما يكفى لإعادته إلى بلاده .

وافتر ثغره عن أنياب مخيفة ، وهو يضيف :

ـ ولكن لدى بشأنهم خطة أخرى ..

عادت عيناه تتألقان بجنون وحشى ، مع استطرادته :

ـ خطة ستبقيهم داخل حدود (روسيا) .. إلى الأبد .

قالها ، وتراجع ليطلق ضحكة ..

ضحكة وحشية عالية مجلجلة ..

ضحكة جعلته أشبه بذئب ..

ذئب قاتل ..

* * *

٢ ـ الهـــدف ..

ارتجف جسد (قدرى) المكتظ، على نحو عجيب، وهو يضمّ ياقتى معطفه السميك، الذى زاد من حجمه ضخامة، وغمغم فى توتر، وهو يقف أمام مطار (موسكو):

ـ لست أصدق أننى قد فعلت هذا ؟! لست أصدق أن أغادر مكتبى الدافئ، فى (القاهرة)، لألقى نفسى فى هذه الثلاجة الكبيرة، فى أقصى الشرق.

حاولت (منى) أن تبتسم، على الرغم من ارتجافة شفتيها، وهى تقول:

ـ هل كان بإمكانك أن تقاوم فكرة الحضور لرؤيته ؟!

ابتسم، وهو يهزّ رأسه نفيًا، قائلاً:

ـ إننى مستعد لأن أدفن حيًا، فى قلب الثلوج، لو أن فى هذا فائدة له ..

وزفر فى قوة، وارتاع لرؤية أنفاسه تتجمد أمامه، وهو يضيف:

ـ (أدهم) هو صديقى الوحيد كما تعلمين.

لكزته فى كتفه، قائلة:

ـ وماذا عنى أيها الجاحد ؟!

قال فى سرعة:

ـ كنت أقصد الرجال.

ألقت نظرة على ساعة يدها، ثم دسّت كفيها فى جيبى معطفها السميك، وهى تقول:

ـ لابأس .. سأسامحك على هذا، بشرط أن تصل سيارة مكتبنا خلال دقائق، قبل أن نتجمّد هنا.

هتف معترضًا:

ـ ولماذا لانستقلّ واحدة من سيارات الأجرة، ذات التدفئة، بدلاً من الانتظار ؟!

لإجابته، وهى تنفث هواءً متجمدًا من بين شفتيها، فى هذا الجو القارس البرودة :

- لأن زملاءنا هنا يحملون لنا ذلك التصريح الخاص، الذى لايمكننا دخول مستشفى قاعدة الفضاء بدونه أيها العبقرى .

هزّ كتفيه المكتظين، قائلاً :

- لو أخبرتنى بهذا، قبل أن نغادر (القاهرة)، لصنعت لك تصريحًا لايمكنهم كشف أمره، أو حتى الشك فيه قط .

ضحكت مرتجفة من شدة البرد، وهى تقول :

- رباه ! هل نبدأ تعاملنا معهم باختراق قوانينهم ؟!

قال فى ثقة :

- لن يدركوا هذا قط .

مع آخر حروف عبارته، توقفت أمامهم سيارة مكتب المخابرات المصرية فى (موسكو)، وهبط منها زميلهما (أسعد)، هاتفًا :

- مرحبًا فى (موسكو) .. أغفرا لى تأخُّرى، ولكن رجال الشرطة يقومون بحملة تفتيش واسعة، ويراجعون أوراق الكل بلا استثناء، طوال الطريق إلى هنا .

تعاونوا على نقل حقائبهما إلى السيارة، و(منى) تسأله :

- ولماذا هذا التعنت ؟!

هزّ (أسعد) رأسه، وهو يحتلّ مقعد القيادة، مجيبًا :

- من الواضح أن الأحوال الأمنية متدهورة بشدة، فخلال أمس واليوم فقط، وقعت عشرات من جرائم القتل والاغتيال، وأريقت أنهار من الدم، على نحو يوحى بأن (المافيا) الروسية تقاتل لاستعادة هيبتها .

شعر (قدرى) بالدفء والارتياح، وهو يستقر داخل السيارة، فتنهّد فى عمق، فى حين سألت (منى) (أسعد) فى اهتمام :

- ألم تتمكّن الدولة من السيطرة عليهم تمامًا ؟!

هزّ رأسه نفيًا ، وأجاب :

- الأمر ليس بهذه السهولة ، فالمنظمة قوية ومتشعّبة ، فى المجتمع الروسى كله ، ومتوغلة فيه على نحو مخيف ، تساعدها على هذا الأزمة الاقتصادية العنيفة ، وتورُّط العديد من المسئولين فيها ، وحتى مع نسف قيادتها ، مازالت هناك قيادات صغيرة ، يمكنها أن تجتمع وتتآزر ، لتصنع قيادة عليا جديدة ، فى محاولة لاستعادة السيطرة على الموقف .. صحيح أن هذا ليس بالأمر اليسير ، مع إصرار السلطات الروسية على التطهير ، ولكن الشر يجد دائمًا من يؤازره أيضًا .

شعرت (منى) بخوف مبهم يعتصر قلبها ، مع كلمات (أسعد) ، فتراجعت فى مقعدها ، وهى تقول بشىء من العصبية :

- ألا يمكنك أن تسرع قليلاً :

تطلّع إليها (أسعد) بطرف عينه ، وقال ، وكأنما فهم ما تشعر به :

- إننا ننطلق بأقصى سرعة يسمح بها القانون الروسى ، داخل المدن ، ثم إن الأرض مغمورة بالجليد ، والإسراع يحمل خطر الانزلاق ، وفقدان السيطرة على عجلة القيادة .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

- والأهم من هذا كله أن سيادة العميد (أدهم) داخل مستشفى قاعدة الفضاء ، وهو مكان محاط بحراسة قوية ، وهذه الحراسة مضاعفة ، عند حجرة سيادة العميد ، الذى يقوم على حراسته اثنان من أفضل رجال المخابرات الروسية ، تحت إشراف (سيرجى كوريوف) شخصيًا ، ولا أحد يمكنه حتى الاقتراب من المكان ، دون أن يحمل تصريحًا خاصًا ..

هتف (قدرى) فى حماسة :

- عظيم .

أما (منى) ، فقد تراجعت فى مقعدها أكثر ، وغمغمت فى توتر :

- أتعشم أن يكفى هذا .

تطلع إليها (أسعد) في دهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم، وهزّ رأسه، مغمغمًا:

- يا للنساء!

ولم تعلّق هي على عبارته، أو تحاول حتى هذا..

ففي داخلها، كان ذلك الخوف المبهم يواصل اعتصار قلبها..

وبمنتهى القسوة..

* * *

« لست أدري ماذا أقول لكم .. »

نطق السفير المصري في (موسكو) العبارة، في توتر شديد، وهو يواجه أفراد فريق (أدهم صبري) الثلاثة .. (علاء) و(شريف) و(ريهام)، الذين وقفوا أمامه في ثبات وصمت، وهو يواصل في حدة:

- المفترض، في كل الأحوال، أن يتمّ إبلاغ السفير، أو حتى الملحق العسكري للسفارة، بأية عمليات تتم

في حدود نطاق عمله، حتى يمكنه تبرير الموقف في المستقبل على الأقل، ولكنكم، بما فعلتموه، وضعتموني في موقف سخيف للغاية، ولولا تقدير السلطات والمسئولين الروس لما حدث، لما أمكنني إخراجكم من هذه الورطة قط..

قال (علاء) في هدوء حازم:

- لقد كنا نؤدي واجبنا، وننفذ ما تلقيناه من أوامر.

هتف السفير محنقًا:

- ولماذا لم يخبرني أحد ؟!

أجابته (ريهام) بشيء من البرود:

- لم يكن هذا ضمن ما تلقيناه من أوامر.

وأضاف (شريف) في سرعة:

- ثم إنه لا يدخل في نطاق اختصاصنا.

زفر السفير في عصبية، وهو يقول في سخط:

- كنت أعلم أنكم ستقولون هذا .

ثم قلب كفيه ، مضيفًا :

- ومن الواضح أنه لاجدوى من مناقشة الأمر الآن ، فلقد قمنا بكل الجهود الدبلوماسية الممكنة ، ولنحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على أنها قد انتهت بشىء من النجاح .. لقد وافقت السلطات الروسية على الإفراج عنكم ، ولكنها تصرّ على ترحيلكم إلى (القاهرة) ، على متن الطائرة التى ستقلع عند منتصف الليل .

وزفر مرة أخرى ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، مضيفًا :

- الواقع أنكم محظوظون لهذه النتيجة .

تبادل الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يقول (شريف) :

- سيّدى .. لنا مطلب أخير .

سأله السفير ، فى مزيج من الضجر والعصبية :

- وما هو ؟!

أجابته (ريهام) فى سرعة :

- نريد رؤية الأستاذ .

ردّد السفير ، فى شىء من الدهشة المتسائلة :

- الأستاذ ؟!

أشار (علاء) بيده ، قائلاً فى هدوء رصين :

- زميلاى يقصدان أستاذنا ومعلمنا .. سيادة العميد (أدهم صبرى) .

هزّ السفير رأسه فى قوة ، قائلاً :

- هذا مستحيل !

قالت (ريهام) فى عصبية :

- حتى ولو كان مطلبًا أخيرًا ؟!

هزّ رأسه فى قوة أكبر ، وهو يقول :

- ليس هذه هى المشكلة .. زيارة العميد (أدهم) ، فى قسم الرعاية الفائقة ، فى مستشفى قاعدة الفضاء ،

[م ٣ - رجل المستحيل عدد (١٣٥) الأستاذ]

تحتاج إلى تصريح خاص جداً ، من المخابرات الروسية مباشرة ، وهذا أمر بالغ الصعوبة ، والوقت المتبقى قبيل رحيلكم ، لن يكفى حتى لتقديم طلب بهذا .

بدا مزيج من الغضب والأسى على وجوههم ، فأضاف السفير فى خفوت :

ـ هذا يؤمّن له الحماية اللازمة .. أليس كذلك ؟!

طال صمتهم بضع لحظات ، قبل أن يجيب (علاء) :

ـ بلى .

تنفّس السفير فى ارتياح ، وشدّ قامته ، قائلاً :

ـ والآن .. هل أخبر رجلى المخابرات الروسية ، اللذين ينتظران فى الخارج أنكم على استعداد للرحيل ؟!

تبادل الثلاثة نظرة صامتة حزينة ، قبل أن يقول (علاء) فى حزم :

ـ بالتأكيد .

لم تمض دقائق عشر ، على قوله هذا ، حتى كانت

واحدة من سيارات المخابرات الروسية تحمل ثلاثتهم بدون حقائب ، فى طريقها إلى مطار (موسكو) ، والصمت يغلّف ركابها الخمسة ، قبل أن يقطعه رجل مخابرات روسى ، قائلاً فى صرامة ، باللغة الإنجليزية :

ـ ما ارتكبتموه من حماقات فى بلادنا أزعجنا كثيراً .

أجابته (ريهام) فى بطء :

ـ بالتأكيد ، فقد كشف تقاعسكم عن وضع حد لمهزلة (المافيا) هذه .

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك ترغبين فى العودة إلى بلدك بنصف أسنان فحسب .

هتف به (شريف) فى غضب :

ـ حاول أن تمسّ شعرة واحدة منها ، وستفقد أسنانك كلها .

ضغط الرجل فرامل السيارة ، بمنتهى العنف والغضب ، والتفت إليه فى حدة ، وهو يسحب مسدسه ، هاتفاً :



اندفعت يد (علاء) تقبض على معصمه . بأصابع من فولاذ . وهو يجيب في صرامة شديدة ..

- من يقول هذا ؟!

اندفعت يد (علاء) تقبض على معصمه . بأصابع من فولاذ ، وهو يجيب في صرامة شديدة ، تطعمها من أسئلاه :

- كلنا .

التقت نظراته بنظرات رجل المخابرات الروسي ، في تحد سافر ، كانت تنقصه دفعة بسيطة ، ليتحول إلى شجار عنيف ، لولا أن تدخل الروسي الآخر ، قائلاً في توتر :

- كفى يا (لوزسكى) .. ستفسد الأمر كله .

بدا لحظة وكأن (لوزسكى) هذا لم يسمع حرفاً واحداً مما قاله زميله ، وأنه سيشعل الموقف كله دفعة واحدة ، إلا أنه لم يلبث أن أعاد مسدسه إلى حزامه ، مغمغماً في عصبية :

- أنت على حق .

عاد ينطلق بالسيارة ، في عصبية واضحة ، جعلت (شريف) يغمغم بالعربية :

- هذا الرجل لايروق لى .

غمغمت (ريهام) :

- لاشىء هنا يروق لى .

صاح (لوزسكى) فى عصبية :

- لاتتحدثوا بالعربية .

قال (علاء) فى برود مستفز :

- إنها الهندية وليست العربية .

انعقد حاجبا الروسى فى غضب ، وهو يقول :

- لاتحاول خداعى أيها المصرى .

مال (علاء) إلى الأمام ، قائلاً فى صرامة :

- ولاتحاول أنت دس أنفك فيما لايعنيك أيها الروسى .

وثبت يد (لوزسكى) نحو مسدسه ، المعلق فى حزامه ، ولكن زميله هتف به فى غضب ونفاد صبر :

- كفى .. لسنا هنا لنشن حربًا على بعضنا .

ثم وجّه حديثه إلى زميله ، مضيفًا بالروسية :

- تمالك نفسك يارجل .. ما هى إلا دقائق ، وتحملهم الطائرة إلى بلادهم ، وينتهى كل هذا ، فلاتفسد الأمر بسخافات لامعنى لها ، وإلا عرضت مستقبلك للخطر .

أطلق (لوزسكى) ضحكة عصبية ساخرة ، قبل أن يقول فى حدة :

- مستقبلى ؟! أى مستقبل ؟! هل تخدع نفسك يا رجل ؟! ألم تصلك الأخبار الجديدة ؟! اسمعها منى إذن .. لقد قررت الإدارة القيام بعملية تطهير داخل الجهاز ، وهذا يعنى الاستغناء عن خدمات نصف الرجال على الأقل ، ولاشىء فى الدنيا يضمن لنا ، ألا نكون على رأس قائمة المستبعدين .

قالها ، وخفف من سرعة السيارة إلى أقل من النصف ؛ ليتفادى تلك السيارة الفان الضخمة ، التى انحرفت على نحو مباغت ، لتغلق الشارع كله ، فهتف فى حنق :

- أى سائق أرعن هذا ! ألم يرنا قادمين ؟!

انعقد حاجبا زميله ، وهو يقول فى عصبية :

- لقد رآنا حتمًا .

قبل حتى أن يتمّ عبارته ، ارتفع بعنف صرير إطارات السيارة الفان الأخرى ، التى اندفعت نحوهم من الخلف ، ثم انحرف بها سائقها أيضًا ، ليغلق الطريق وراء سيارتهم تمامًا ..

وبكل قوته ، ضغط (لوزسكى) فرامل سيارته ، صائحًا :

- ماذا أصاب هؤلاء الأوغاد ؟!

تبادل المصريون الثلاثة نظرة بالغة التوتر ، قبل أن يدفع (علاء) جسده إلى الأمام ، هاتفًا بالروسية :

- لاتتوقف يارجل .. انطلق .. انطلق بالله عليك .

مع آخر حروف كلماته ، انفتح جانبا السيارتين اللتين تعترضان طريقهما من الجانبين ، ووثب عبرهما فريقان من الرجال ، فى معاطف سوداء سميكة ، وأغطية رأس تخفى نصف وجوههم ..

ثم ارتفعت دستة من فوهات المدافع الآلية نحو السيارة ..

وانطلقت الرصاصات تدوى فى غزارة رهيبة ، وتنهمر على السيارة مباشرة ..

السيارة التى تضمّ الفريق ..

فريق (أدهم صبرى) ..

فريق المستحيل !

* * *

ارتفع حاجبا (منى) فى تأثُّر ، وانحدرت من عينيها دمعة ساخنة ، التهبت بها وجنتها ، وهى تغمغم :

- لم أتصورّ أن أراه يومًا هكذا .

كعادته ، ترك (قدرى) دموعه تنهمر فى غزارة ، وهو يتطلّع عبر الحاجز الزجاجى ، إلى جسد (أدهم) ، الراقد داخل حجرة العناية المركزة ، والمتصل بعدد من الأسلاك والأنابيب الرفيعة ، وتمتم بكل حزن الدنيا :

- ولكننى أتوقع دومًا ما هو أسوأ .. فالحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على أنه ما زال على قيد الحياة .

غمغمت (منى) فى مرارة :

- لو أنك تعتبر هذه حياة .

تدخل الدكتور (أحمد صبرى) ، قائلاً :

- بل هى حياة يا (منى) .. من الناحية الطبية العلمية ، تجاوز (أدهم) مرحلة الخطر تمامًا والحمد لله ، ووفقًا لقياساته ومعدلاته الحيوية ، لايوجد سبب واضح لاستمرار حالة الغيبوبة هذه ، اللهم إلا إذا كان جسده يسعى لتعويض كل مابذله من جهد رهيب ، يفوق طاقة البشر ، خلال الأسابيع الماضية .

أومأت (منى) برأسها إيجابًا ، وقالت :

- إنه يبذل دومًا ما يفوق طاقة البشر .

هتف (قدرى) فى حماسة :

- هذا أمر طبيعى .. إنه ليس رجلاً عاديًا .

ثم انخفض صوته ، وهو يتطلع مرة أخرى إلى (أدهم) ، مكملاً فى تأثر :

- إنه رجل المستحيل .

غمغمت (منى) :

- صدقت .

تنهد الدكتور (أحمد) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، وهو يقول فى رصانة :

- لو أننى فى مكان (أدهم) ، ويحيط بى كل هذا الحب ، لما واصلت غيبوبتى هذه أبدًا .

قالت (منى) فى حنان :

- دعه يستريح بقدر الإمكان .

وارتفع حاجباها فى تأثر ، وهى تضيف :

- إنه يستحق هذا .

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها ، توقفت

سيارة ضخمة أمام بوابة قاعدة الفضاء الروسية ، وأطل من كابينة قيادتها وجه غليظ الملامح ، قال صاحبه بصوت خشن جاف :

ـ أين مبنى المستشفى الطبى ؟!

سأله حارس البوابة فى صرامة :

ـ من أنت أولاً ؟! وهل تحمل تصريحًا بالدخول ؟!

ربت زميل الحارس على كتفه ، قائلاً :

ـ تصريحه لدى هنا .

التفت إليه الحارس ، متسائلاً :

ـ وأين هو ؟!

رفع الرجل يده بحركة سريعة وهى تحمل مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت ، وقال وهو يلصق فوهته بعنق الحارس :

ـ ها هو ذا .

نطقها ، فى نفس اللحظة التى اعتصرت فيها سبابته الزناد ، لينسف رأس الحارس نسفًا ..

وفى نفس اللحظة التى سقط فيها الحارس جثة هامدة ، ألقى صاحب الصوت الخشن رزمة من النقود إلى الحارس الآخر ، متسائلاً بلهجة لاتحمل أدنى انفعال :

ـ خذ يا هذا .. إنك تستحقها عن جدارة .

التقط الحارس الآخر النقود فى لهفة وشراهة ، ودسّها فى جيبه بسرعة ، وهو يقول :

ـ أسرعوا بالله عليكم .. المستشفى هناك ، فى نهاية اليسار ، و ...

قاطعه صوت آخر من داخل السيارة ، قائلاً فى صرامة :

ـ نحن نعرف أين هو .. ولدينا خريطة لتصميماته الداخلية أيضًا .

ازدرد الحارس الثانى لعابه فى صعوبة ، وأشار بيده فى عصبية ، قائلاً :

ـ أسرعوا إذن .

انطلقت السيارة الكبيرة، قبل حتى أن تنتهى عبارته، واتجهت مباشرة نحو مبنى المستشفى، وقائدها صاحب الصوت الخشن يقول:

- الحراسة ليست قوية، كما كنا نتصورّ.

أجابه الصارم.

- الحراسة الحقيقية ستواجهها هناك.

أوقف صاحب الصوت الخشن السيارة الكبيرة، أمام المدخل الخلفى للمستشفى، وهو يسأل فى لامبالاة:

- هل تعتقد أننا سنلقى مقاومة عنيفة؟

هزّ الصارم كتفيه، قائلاً:

- ومن يبالي .. سنطلق النار على الكل بلا استثناء.

ثم ضغط زرًا أمامه، مضيفًا فى صرامة:

- المهم أن نظفر بالهدف.

ومع ضغطته، انفتحت أبواب السيارة الضخمة، وقفز منها ستة من الرجال الأشداء الأقوياء، وكل منهم يرتدى قناعًا سميكًا، ويحمل مدفعًا آليًا قويًا..

وفى لحظة واحدة، انقضّ الكل على المستشفى، ورءوسهم تحمل هدفًا واحدًا، يسعون لتصفيته بأى ثمن..

هدف يدعى (أدهم)..

(أدهم صبرى)..





٢ ـ القتلة ..

لم تكد رصاصات قتلة (المافيا) الروسية تنطلق، نحو السيارة التى تقل فريق (أدهم)، حتى صاح رجل المخابرات الروسية (فلاديمير)، وهو يستل مسدسه، ويدفع زميله (لوزسكى) بقوة:

ـ ماذا تنتظر يا رجل .. انطلق .. انطلق بالله عليك.

أدرك (علاء) و(شريف) و(ريهام) على الفور، أن السيارة التى يركبونها مصفحة، ومضادة للرصاصات، عندما ارتطمت بها رصاصات المدافع الآلية، ثم ارتدت عنها فى عنف، فصاحت (ريهام) بدورها:

ـ هيا .. انطلق .. ماذا تنتظر ؟

استدار (لوزسكى) بسرعة، ليقبض على معصم زميله (فلاديمير)، ثم رفع فوهة مسدسه نحوه، هاتفًا فى شراسة:

ـ نعم .. ماذا أنتظر ؟

شهق (فلاديمير)، من فرط الذهول والاستنكار والذعر، وهو يحدق فى زميله، الذى يوشك على قتله، و ...

وكالقنبلة، انطلقت قبضة (علاء)، تحطم أنف (لوزسكى)، ورصاصات (المافيا) الروسية ما زالت تنهمر على السيارة كالمطر، فاستدار رجل المخابرات الروسى بجسده ومسدسه وأنفه المحطم الدامى إلى (علاء)، صارخًا:

ـ أيها الـ ...

قبل أن تكتمل صرخته، هوى (علاء) على فكه بلكمة أخرى أشد قوة، ثم أمسك بياقتى سترته، وحمله بذراعين فولاذيتين، لينتزعه من مقعد القيادة ويجذبه فى قسوة إلى المقعد الخلفى، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها رجال (المافيا) الروسية يحاصرون السيارة، ويسعون لاقتحامها، فصاحت (ريهام)، وهى تدفع جسد (لوزسكى) تحت قدميها:

- أغلقوا الأبواب .. أسرعوا .

قبل أن يكتمل هتافها ، كان أحد رجال (المافيا) الروسية قد بلغ السيارة بالفعل ، وجذب الباب المجاور لمقعد السائق ، وأدار فوهة مدفعه نحوه ، فاستدار إليه الروسى (فلاديمير) ، وأطلق عليه النار من مسدسه ، ليطيح به بعيدًا ، وهو يميل بأقصى مما سمح به حزام مقعده ، فى محاولة لإغلاق الباب ، وإحكامه ، قبل أن يصل آخر ..

وبكل الغضب ، عادت الرصاصات تنهمر ، وارتفع صوت أحد قتلة (المافيا) الروسية ، يهتف :

- الإطارات .. انسفوا الإطارات .

تلقى (فلاديمير) رصاصة فى كتفه ، قبل أن يغلق الباب تمامًا ، وسقط مسدسه من قبضته ، وهو يتراجع فى سرعة ، هاتفًا :

- يا للأوغاد

صاح (شريف) فى ذعر :

- سيطلقون النار على الإطارات .. سيحتجزوننا هنا .

دفع (علاء) جسده إلى الأمام فى مرونة مدهشة ، اكتسبها من تدريباته فى قوات الصاعقة المصرية ، وألقى نفسه على مقعد القيادة ، وهو يهتف :

- لقد طلب منهم نسفنا ، وليس إطلاق النار .

اتسعت عينا (شريف) فى ارتياع ، وهو يحدّق فى أحد رجال (المافيا) ، الذى برز من سيارة المؤخرة ، وهو يحمل على كتفه مدفعًا ، يصوّبه نحو سيارتهم مباشرة ، وهتف :

- رباه

وصاحت (ريهام) :

- ماذا تنتظر ؟!

قبض (علاء) على عجلة القيادة فى قوة ، وضغط دواسة الوقود ، فانطلقت صرخة الإطارات حادة ، قبل أن تقفز السيارة إلى الأمام ، فى نفس اللحظة التى انطلق فيها صاروخ المدفع نحوها مباشرة ..

وبكل مهارته وإصراره ، انحرف (علاء) بالسيارة جانبًا ، واندفع بها يرتطم باثنين من قتلة (المافيا) الروسية ، فى نفس اللحظة التى انفجر فيها الصاروخ خلفها مباشرة ..

كان الانفجار عنيفًا قويًا ، حتى إن مؤخرة السيارة قد ارتفعت لمتر كامل تقريبًا ، على نحو يوحى بأنها ستنقلب رأسًا على عقب ، لولا أن دفعها الانفجار نفسه مترين إلى الأمام ، فارتطم جانبها الأيمن بسيارة الفان الضخمة ، قبل أن يميل بها (علاء) إلى اليسار فى سرعة ، ويضغط دوّاسة الوقود أكثر وأكثر ، وقد انعقد حاجباه فى شدة ، وبدا وجهه صورة للحزم والإصرار ..

لم تكن المسافة بين الجدار والفان تسمح بمرور آمن لسيارة المخابرات الروسية ، ولكن (علاء) لم يتوقف ، ولم يخفض سرعته ، واندفع بالسيارة فى ذلك الفراغ الضيق ، وهو يصرخ :

- أخفضوا رءوسكم .

أطاعه الكل بسرعة ، وهتفت (ريهام) ، وهى تدفع رأسها إلى أسفل :

- هل سـ ...

قبل أن تتمّ تساؤلها ، سمعت صوت ارتطام عنيف من الجانبين ، ولمحت شرارات نارية عنيفة ، انطلقت من احتكاك جسم السيارة بالجدار والفان فى آن واحد وامتزج كل هذا بانفجار آخر خلفهم ، ووهج نيران غمر كل شىء ، قبل أن تعبر السيارة إلى الجانب الآخر ، ويطلق (علاء) لها العنان ، هاتفًا :

- نجحنا .

اتسعت عينا (فلاديمير) فى ذهول ، وهو ينهض هاتفًا :

- مستحيل !

اعتدل ، وتلفّت حوله ، قبل أن يستطرد فى انفعال :

- الآن أدرك كيف فعلتموها !! كيف أنجزتم ما فشلنا فيه نحن ، وحطمتم رأس الأفعى .

أجابه (شريف) فى عصبية ، وهو يعتدل بدوره :

ـ من الواضح أن الأفعى نفسها مازالت ممتلئة بالسم يارجل .

هتفت (ريهام) :

ـ وهي تسعى للانتقام .

لم تكد تنطق كلماتها ، حتى ظهر فريق من راكبي الدراجات النارية ، يطاردون السيارة في إصرار ، فهتف (فلاديمير) :

ـ وبمنتهى الإصرار .

مع آخر حروف كلماته ، دوى انفجار آخر خلف السيارة ، في قلب ذلك الشارع الواسع الطويل ، الذي يتجه إلى المطار مباشرة ، وكانت السيارة تفقد توازنها ، مع موجة التضاغط العنيفة ، فصاحت (ريهام) في عصبية :

ـ مايحدث يجعلني أتساءل : أيوجد جهاز شرطة بالفعل ، في هذا البلد ؟!

مال (علاء) بالسيارة في حدة ، وهو يهتف :

ـ إنهم يحتاجون بعض الوقت للظهور .

انهالت الرصاصات مرة أخرى على السيارة كالمطر ، من راكبي الدراجات النارية ، و (شريف) يهتف منزعجًا :

ـ كم من الوقت ؟! عام مثلاً ؟!

لم يكد ينطقها ، بهذه العصبية الشديدة ، حتى دوى انفجار آخر من خلفهم ..

وفي هذه المرة كان انفجارًا قريبًا ..

قريبًا جدًا ..

قريبًا إلى الحد الذي جعل السيارة تثب في جنون ، وتدور حول نفسها على نحو مخيف ، قبل أن تنقلب على جانبها ، وترتطم بالأرض في عنف ، ثم تنزلق خمسة أمتار كاملة ، فوق الجليد ، الذي يغطي الشارع ، ثم تستقر على جانب الطريق ، والدخان يتصاعد من إطاريها الخلفيين المحترقين ..

وهنا ، توقَّف راكبو الدراجات النارية ، وتقدَّم أحدهم ، حاملاً مدفعه على كتفه ، وصوبه إلى السيارة المقلوبة ، وهو يغمغم في سخرية غليظة :

ـ انتهى أمركم يا أبطال من ورق .

ثم ضغط زناد المدفع ..

وانطلق الصاروخ القاتل ..

بلا رحمة ..

* * *

انتفض جسد (منى) فى عنف، مع دوى الرصاصات فى الطابق السفلى، وهتفت فى ارتياع :

ـ ماذا يحدث هنا ؟!

أجابها الدكتور (أحمد)، فى توتر شديد، وهو يندفع نحو النافذة :

ـ المفترض ألا يحدث شىء كهذا أبدًا .

لحقت به (منى) عند النافذة، واتسعت عيناها عن آخرهما، عندما رأت طاقم الحراسة، الخاص بالمخابرات الروسية، وهو يتبادل النيران مع رجال (المافيا) الروسية المقتحمين، وانتفض جسدها فى عنف مع تساقط رجال المخابرات الروسية، وتقدم قتلة (المافيا) الروسية، وغمغمت :

ـ رباه ! هذا ما كنت أخشاه .. هذا ما كنت أخشاه .

صاح أحد الأطباء الروس :

ـ هناك خيانة حتمًا .. من المستحيل أن يصلوا إلى هنا دون خيانة .

هتفت به (منى) :

ـ سنناقش هذا فيما بعد، أما الآن فليمنحنى أحدكم سلاحًا .

أجابها أحد رجلى المخابرات الروسية، المسئولين عن حماية (أدهم) شخصيًا فى صرامة :

ـ مستحيل يا سيدتى .. هنا نحن نتولى حمايتكم والدفاع عنكم .

قالها، واندفع خارج المكان، وأغلق مدخله فى إحكام، فهتف (قدرى) فى ذعر :

ـ هل .. هل سيسجنوننا هنا ؟!

تلفتت (منى) حولها فى توتر ، بحثًا عن أى شىء يمكن استخدامه كسلاح عند الحاجة ، وهى تقول :

ـ ليت الأمر يقتصر على هذا .

امتقع وجه (قدرى) بشدة ، والتصق بالجدار فى ارتياع ، هاتفًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

فهم الدكتور (أحمد) مايعنيه هذا ، فتساءل مذعورًا :

ـ هل تعتقدين أنهم يمكن أن ينجحوا فى الوصول إلى هنا ، على الرغم من كل إجراءات الأمن ؟!

أجابته فى عصبية :

ـ ألم تسمع ما قاله الطبيب الروسى ؟! هناك خيانة حتمًا ، والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ، مقدار هذه الخيانة .

صاح (قدرى) ، وجسده كله يرتجف هلعًا وانفعالاً :

ـ رباه ! إنهم يريدونه .. يسعون للانتقام منه .

استدارت فى حركة حادة ، تلقى نظرة على (أدهم) ، قبل أن تهتف :

ـ ومن سيسمح لهم ؟!

كان دوى الرصاصات يتواصل ويقترب ، على نحو لايبشر بالخير ، فاستطردت (منى) فى حدة :

ـ لايمكننا أن نترك (أدهم) هنا .. لابد أن ننقله إلى أى مكان آخر .

هتف الدكتور (أحمد) فى توتر شديد :

ـ لايوجد مكان آخر للأسف .. هذا جزء من نظام تأمينه .. أن يكون هناك سبيل واحد إلى هنا فحسب .

هتفت مختنقة :

ـ ألم يفكر مخلوق واحد فى احتمال كهذا ؟!

هز رأسه نفيًا فى عصبية ، وهو يجيب :

ـ كلا بالطبع .

اقترب دوى الرصاصات أكثر وأكثر ، وانطلقت فى أماكن عدة صفارات إنذار قوية ، فاندفعت (منى) إلى الحجرة التى يرقد فيها (أدهم) ، هاتفة :

- لابد أن نجد وسيلة لحمايته .. لابد .

اندفع الدكتور (أحمد) خلفها ، وهو يهتف فى انزعاج :

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة ؟!

أسرعت نحو جهاز تنشيط القلب الكهربى ،وهى تجيبه فى انفعال :

- من أهمّ ماتعلّمه فى عملنا ، ضرورة أن نستعين بأى شىء حولنا ؛ للدفاع عن أنفسنا عند الحاجة .

جذبت الصاعقين من مكانهما فى قوة ، وقطعت السلك المتصل بهما ، فصاح الدكتور (أحمد) :

- أنت تفسدين الجهاز .

ألقت الصاعقين جانبًا ، وهى تقول فى صرامة :

- إنه جهاز للطوارئ .. أليس كذلك ؟!

هتف بها :

- بلى .. إننا نستخدمه لمنح القلب صدمة كهربية ، فى حالة ما إذا ...

قاطعته فى صرامة ، وهى تلتقط أسطوانة أكسجين للطوارئ ، فى ركن الحجرة :

- لن تجد طوارئ أسوأ من وضعنا هذا .

تابعها ببصره فى توتر بالغ ، وهى توصل سلكى الجهاز بأسطوانة الأكسجين ، ثم تدفعهما إلى باب المكان الرئيسى ، فقال فى عصبية :

- ماذا تتوقعين أن تصنعى بهذا ؟!

أجابه (قدرى) بصوت مرتجف :

- قنبلة .

اتسعت عينا الدكتور (أحمد) عن آخرهما ، وهو يهتف مستنكرًا :

- قنبلة ؟!

سألته فى عصبية ، وهى تلتقط أسطوانة إطفاء حريق من الجدار :

- ماذا كنت تتوقع ؟! كعكة عيد الميلاد ؟!

صاح بها فى غضب :

- هل تعتقدين أن الظروف تسمح بهذا ؟!

اندفعت نحوه ، وجذبته إلى ركن يخفيه جهاز رسام المخ الحديث ، وهى تقول فى حزم صارم :

- الوقت لايسمح بأى شىء .. هيا .. احتم أنت و(قدرى) ، وهذا الطبيب الروسى بالجهاز ، واتركوا لى مهمة القتال ، لو حتمت الظروف هذا .

لم يفهم الطبيب الروسى حرفًا واحدًا مماقالته ، ولكنه استوعب الموقف كله بذكاء غاضب ، وهو يهتف بالروسية :

- لن أنتظر لحظة واحدة هنا .

قالها ، واندفع نحو الباب ، وأدار المقبض فى سرعة ، فهتفت به (منى) :

- توقف .. نحن لاندرى ما إذا ...

قبل أن تكتمل عبارتها ، دوت رصاصات قوية ، انتزعت المقبض ورتاج الباب معًا ، واخترقت جسد الطبيب الروسى ، لتطيح به بعيدًا فى عنف :

وقبل حتى أن يرتطم جسده بالأرض ، اقتحم المكان ستة من قتلة (المافيا) الروسية الأقوياء ..

وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحو الكل ..

بلا استثناء ..

أو رحمة ..

* * *

من أكثر الخبرات ، التى يكتسبها مقاتل الصاعقة ، فى القوات المصرية ، أن يواجه الموت بصدر مفتوح ، وعقل متماسك ، وأعصاب لاتهتزّ منها ذرة واحدة ، مع قدرة مدهشة على رد الفعل السريع ..

وعندما ينتقل أحد رجال الصاعقة ، إلى صفوف

المخابرات العامة ، ويتلقى تدريباته الخاصة المميّزة فيها ، تتضاعف هذه القدرات مرتين على الأقل ..

لذا ، ففى نفس اللحظة ، التى رفع فيها قاتل (المافيا) الروسية فوهة المدفع ، وضغط زناده ، ليطلق صاروخه نحو سيارة فريق المستحيل ، حلّ (علاء) حزام مقعده ، واختطف مسدس (فلاديمير) الفاقد الوعى ، ثم دفع جسده عبر النافذة المحطمة ، وأطلق النار ..

ومع ضغطة سبّابته على الزناد ، انتفض جسد قاتل (المافيا) الروسية فى عنف ، ومال إلى الخلف بزاوية حادة ، فانطلق الصاروخ بعيدًا ، وتجاوز السيارة بمتر كامل ، قبل أن يرتطم بجدار قديم ، وينفجرا معًا ..

ودون أن تضيع لحظة واحدة ، انتزعت (ريهام) مسدس (لوزسكى) ، ودفعت جسدها إلى أعلى ، نحو نافذة السيارة المقلوبة ، وهى تهتف بـ (شريف) :

ـ افسح الطريق بالله عليك .. إنه يحتاج إلى مؤازرتنا .

هتف بها فى عصبية :

ـ وماذا عنى ؟! ماذا ينبغى أن أفعل لمساندتكما ؟!

صاحت به ، وهى تبرز عبر النافذة المقلوبة ، وتصوّب مسدسها إلى قتلة (المافيا) الروسية ، الذين اندفعوا بدراجاتهم النارية نحو السيارة :

ـ اخفض رأسك فحسب .

خفض رأسه بالفعل ، ودفن وجهه فى جسد (لوزسكى) ، وهو يهتف فى حنق متوتر :

ـ هذا لا يكفى .

أطلق (علاء) و(ريهام) رصاصات مسدسيهما ، فى اللحظة نفسها ، وأطاحا بثلاثة من قتلة (المافيا) الروسية دفعة واحدة ، ولكن الآخرين أطلقوا رصاصاتهم نحوهما كالمطر ، فأسرعا ينخفضان داخل السيارة مرة أخرى ، و(ريهام) تهتف فى عصبية :

ـ نبدو أشبه بفئران فى المصيدة .

أجابها (علاء) ، وهو يتلفّت حوله فى توتر :

- الفئران لايحاصرها فريق من القطط المتوحشة على الأقل .

همّت (ريهام) بالتعليق على عبارته، لولا أن وقع بصرها على مشهد رهيب، عبر زجاج السيارة المقلوبة، فاتسعت عيناها عن آخرهما، وهتفت :

- يا إلهى !

ففى آن واحد تقريبًا، وبحركة التفاف محكمة، كان ستة من قتلة (المافيا) الروسية قد انتزعوا ست قنابل يدوية من أحزمتهم، وألقوا صمامات أمنها جانبًا، واستعدوا لإلقائها، برمية رجل واحد، على السيارة المقلوبة ..

وكان هذا يعنى انفجارًا رهيبًا ..

وقاتلاً ..

حتمًا ..

* * *

لم يكد قتلة (المافيا) الروسية يقتحمون المكان، حتى وثبت (منى)، تضغط زر تشغيل منشط القلب الكهربى، فيسرى التيار فورًا فى أسلاكه، حتى بلغ أسطوانة الأكسجين المضغوط، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجرت أسطوانة الأكسجين، فى وجوه القتلة، فسحقت اثنين منهم على الفور، وأصابت ثالثًا فى صدره فسقط على ركبتيه، وراح يسعل ويخور على نحو عجيب ..

وفى اللحظة نفسها، اندفعت (منى) نحو الرجال الثلاثة المتبقين، وهى تطلق صرخة قتالية قوية، ثم هوت على رأس أحدهم بأسطوانة إطفاء الحريق، قبل أن تدور حول نفسها، وتضرب بها وجه آخر ..

ولكن الأخير انقضّ عليها فى شراسة رهيبة، وهو يطلق صرخة جعلته يبدو، بجسده الهائل الحجم، أشبه بديناصور أتى من عصور سحيقة، ليبث الرعب والدمار فى عالمنا ..



وكانت الضربة من العنف ، حتى إنها انتزعتها من مكانها ، وألقت بها ثلاثة أمتار إلى الخلف ، لتسقط داخل حجرة (أدهم) ..

وبكل قوته ، هوى العملاق على (منى) بكعب مدفعه الآلى ..

وكانت الضربة من العنف ، حتى أنها انتزعتها من مكنتها ، وألقت بها ثلاثة أمتار إلى الخلف ، لتسقط داخل حجرة (أدهم) ..

وفى غضب ، اندفع (قدرى) نحو العملاق ، صائحًا :

ـ أيها الوغد .. كيف تجرؤ ..

استدار إليه العملاق فى سرعة ، ورفع فوهة مدفعه الآلى ، ليطلق عليه رصاصاته ، لولا أن وثب الدكتور (أحمد) يتعلق بعنقه من الخلف ، صارخًا :

ـ كفى .. كفى ..

انطلقت رصاصات العملاق فى الهواء ، فوق رأس (قدرى) مباشرة فى نفس اللحظة التى نهض فيها القاتل المصلب ، وهو يمسك صدره ، صائحًا بكل غضب ووحشية الدنيا :

ـ اقتلهم يا رجل .. اقتلهم من أجلى .

أدار العملاق يده اليسرى إلى الخلف ، وقبض على مؤخرة عنق الدكتور (أحمد) ، وهو يهتف :

- على الرحب والسعة .

كانت (منى) تهب واقفة من سقطتها ، ورأسها يدور فى شدة ، من عنف الضربة التى أصابتها ، عندما انتزع العملاق الدكتور (أحمد) ، بقوة مذهلة ، ثم ألقاه نحوها بكل قوته ، فارتطم بها فى عنف ، ليسقط كلاهما أرضًا ، على بعد مترين فحسب ، من فراش (أدهم) ..

وبتلقائية عجيبة ، اندفع (قدرى) نحوهما ، هاتفًا بصوت لاهث منفعل :

- هل .. هل أصابكما مكروه ؟!

نهض قاتل آخر ، من قتلة (المافيا) ، الذين أصابتهم (منى) بأسطوانة إطفاء الحريق ، والتقط مدفعه الآلى فى غضب ، فى حين هتف المصاب فى انفعال جارف ، ووحشية بلا حدود :

- اقتلهم يا رجل .. اقتلهم .

تألقت عينا العملاق ، وهو يندفع نحو حجرة (أدهم) ، ويصوب مدفعه إلى (قدرى) و(منى) ، والدكتور (أحمد) ، قائلاً فى شراسة :

- سأفعل ..

ومن موقعها ، ومع استحالة نهوضها فى الوقت المناسب ، أدركت (منى) أنها النهاية هذه المرة ..

ودون أدنى شك .

* * *



٤ـ حالة خاصة ..

« سيادة العميد (أدهم) يواجه محاولة اغتيال فى (موسكو) .. »

هتف نائب مدير المخابرات العامة المصرية بالعبارة، فى توتر بالغ، داخل مكتب المدير، الذى هبَّ واقفًا من خلف مكتبه، ومتسائلاً :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

أجابه الرجل فى انفعال :

ـ مندوبنا هناك يقول : إن فريقًا من القتلة قد تسلَّل إلى القاعدة الفضائية الروسية، عن طريق لعبة خيانة، وأنهم قد اشتبكوا مع رجال المخابرات الروسية، وطاقم الحراسة، ونجح بعضهم فى اقتحام المستشفى، حيث يرقد سيادة العميد (أدهم).

اتسعت عينا المدير، وهو يهتف :

ـ رباه ! إنها كارثة !

وافقه نائبه بإيماءة متوترة من رأسه، قائلاً :

ـ وأية كارثة !!

تحرَّك المدير من خلف مكتبه، وانعقد حاجباه فى تفكير عميق، وهو يسير فى الحجرة فى صمت، قبل أن يتوقَّف أمام النافذة بضع لحظات، ثم يقول فى حزم :

ـ هل تعتقد أنهم يستطيعون الظفر به ؟!

غمغم النائب :

ـ هذا يتوقَّف على طاقم الحراسة الروسى.

صمت المدير لحظات أخرى، وهو يفكِّر فى عمق، قبل أن يقول :

ـ من المؤسف أنه ليس لدينا ما نفعله.

عضَّ نائبه شفته السفلى فى مرارة، هاتفًا :

ـ كان ينبغى أن نعيده إلى هنا بأية وسيلة.

هزَّ المدير رأسه، قائلاً :

ـ لم يكن هذا ممكنًا.

ثم تنهّد فى عمق ، وعاد يتطلّع عبر النافذة فى شرود ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أنه ، فى هـذه اللحظـة أيضـًا ، ليس هـذا ممكنًا .. الأمر كله بيد اللّه (سبحانه وتعالى) ، فإما أن يكتب للعميد (أدهم) المزيد من العمر ، أو ...

لم يكمل عبارته ، ولم يطاوعه لسانه على إكمالها ، فقد بدت له الفكرة مخيفة ..

مخيفة للغاية ..

* * *

فجأة ، انطلقت الرصاصات من كل جانب ..

كان قتلة (المافيا) الروسية يرفعون قنابلهم ، استعدادًا لإلقائها نحو السيارة ، التى تضمّ أفراد الفريق ، عندمـا برز فريق من الرجال بغتة ، داخل سيارتين ، ظهرتـا عند المنحنى القريب ، وكأنما انبثقتا من عدم ..

وفى لحظة واحدة ، وبراعة مدهشة ، انطلقت رصاصات فريق الرجال كالمطر ، نحو قتلة (المافيا) الروسية ..

ومع المفاجأة والانفعال ، سقط بعض قتلة (المافيا) ، وسقطت وسطهم قنابلهم اليدوية ، منزوعة الفتيل ..

ودوت الانفجارات فى عنف ..

وهتفت (ريهام) ، وهى تنكمش على نفسها بحركـة غريزية :

ـ رباه ! ماذا يحدث ؟! هل انفتحت أبواب الجحيم أم ماذا ؟!

صاح بها (شريف) :

ـ المهم أنها لم تنفتح فى وجوهنا .

امتزجت صيحته بدوى الرصاصات ، المتبادلة بين الجانبين ، وبصرخة إطارات السيارتين ، اللتين توقفتـا على مسافة متر واحد من سيارتهم المقلوبة ، وتعـالت أصوات دراجات نارية تبتعد ، قبل أن يثب شخص قـوى البنية ، ليتعلّق بسيارتهم ، ويطلّ من نافذتهـا ، متسـائلًا بصوت بارد مألوف :

ـ أأنتم بخير ؟!

حتى الثلاثة فى وجه رجل المخابرات الروسية الوحيد ، الذى يعرفونه جيدًا ، فى تلك البلاد ، قبل أن تهتف (ريهام) فى حماسة :

- سيد (كوربوف) ! لايمكنك أن تتصور كم تسعدنى رؤيتك ، فى هذه اللحظة بالذات .

مد (سيرجى كوربوف) يده إليها ، ليعاونها على الخروج من السيارة ، وهو يتساءل فى اهتمام :

- كيف حدث هذا ؟! المفترض ألا يعرف أحد موعد سفركم ! حتى تذاكر الطيران تم حجزها بأسماء مستعارة !

أجابه (علاء) ، وهو يدفع جسده خارج السيارة :

- رجلكم (لوزسكى) خائن .. لقد حاول قتل زميله (فلاديمير) ، حتى يسلمنا لهم .

غمغم (سيرجى) فى برود غاضب :

- (لوزسكى) ؟!

أزاح (شريف) جسد (لوزسكى) ، وهو يقول :

- كان عصبيًا من البداية ، ولكننى لم أتصور أنه خائن أيضًا ..

ابتعد (سيرجى) قليلاً ؛ ليسمح لـ (شريف) بمغادرة السيارة ، وهو يغمغم :

- ولا أنا .

وانتظر حتى أصبح (شريف) خارجها ، ثم عاد يتطلع إلى (لوزسكى) الفاقد الوعى ، مكملاً :

- المفترض ، بعد عمليات التطهير الأخيرة ، أن كل هؤلاء الرجال موضع ثقة تامة ، وظهور خائن بينهم يعنى أن (المافيا) متوغلة أكثر مما كنا نتصور ، حتى إن ...

بتر عبارته ، واستدار يتطلع إلى أفراد فريقه ، الذين انتشروا فى المكان ، وراحوا يفحصون جثث قتلة (المافيا) الروسية ، ويستجوبون المصابين والأحياء منهم ، الذين وقعوا فى قبضتهم ، قبل أن يتابع :

- حتى إننى أتساءل ، بمن يمكن أن أثق .

هتف به (علاء) فى توتر ، وهو يدس مسدس (فلاديمير) فى حزامه :

- سيد (كوربوف) .. ما أخشاه فى الواقع هو أن يتعرَّض سيادة العميد (أدهم) لمحاولة اغتيال مماثلة .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، فى توتر شديد ، لختفى معظمه خلف ملامحه الباردة كالثلج ، وهو يغمغم :

- هذا مستحيل !

ثم صمت لحظة ، شرد خلالها بصره وتفكيره ، قبل أن يلتقط هاتفه الخلوى من جيبه ، مضيفا :

- نظريًا .

ضغط أزرار الهاتف فى سرعة ، وسمع الرنين فى وضوح عند الجانب الآخر ، قبل أن يأتيه صوت مذعور ، يهتف :

- سيِّد (كوربوف) .. أهو أنت ؟!

أجابه (سيرجى) فى سرعة :

- ماذا يحدث عندك ؟!

صمت بضع لحظات ، وانعقد حاجباه بشدة أكثر ، وهو يستمع إلى محدثه فى اهتمام متوتر ، قبل أن ينهى المحادثة ، ويرفع عينيه إلى أبطالنا الثلاثة ، فهتفت به (ريهام) فى توتر بالغ :

- ماذا حدث هناك ؟!

هوى قلب (شريف) بين قدميه ، وهو يحدِّق فيه بذعر ، وانعقد حاجبا (علاء) ، وهو يجاهد لكبت شعور عارم بالقلق فى أعماقه ، فى حين هزَّ (سيرجى) رأسه ، وقال بتوتر عجزت حتى ملامحه الثلجية عن إخفائه هذه المرة :

- لن يمكنكم أن تتصوَّروا ماحدث هناك ، فى مستشفى قاعدة الفضاء !! لن يمكنكم أن تتصوَّروا أبدًا .

وكان على حق تمامًا فيما قاله ..

فما حدث هناك ، فى حجرة (أدهم صبرى) ، فى مستشفى قاعدة الفضاء الروسية ، كان أمرًا يستحيل تصديقه !

أمر يتجاوز كل القواعد البشرية ..

كلها بلا استثناء ..

* * *

تألّقت عينا عملاق (المافيا) الروسية فى وحشية، وانطلقت من حلقه ضحكة ظافرة شرسة، وهو يصوّب فوهة مدفعه الآلى، نحو (قدرى) و(منى)، والدكتور (أحمد)، وتقدّم زميله نحوه فى غضب، فى حين صاح المصاب فى ثورة:

- اقتلهم .. اقتلهم يا رجل .. اقتلهم.

ارتجف جسد (منى) فى حنق غاضب، واتسعت عينا الدكتور (أحمد) عن آخرهما فى ارتياع، فى حين أطلق (قدرى) شهقة رعب، وهو يحدّق فى فوهة المدفع القاتلة ..

وبكل انفعالها، هتفت (منى)، ودموعها تترقرق فى عينيها:

- سامحنى يا (أدهم) .. لقد بذلت كل ما بوسعى.

جذب القاتل العملاق إبرة مدفعه، و ...

وفجأة، قبضت أصابع كالفولاذ على معصمه ..

ثم رفعت يده إلى أعلى، لتنطلق رصاصات مدفعه فى سقف الحجرة ..

ومن المؤكد أن (قدرى) و(منى) والدكتور (أحمد صبرى)، لن يمكنهم أبدًا نسيان ذلك المشهد المهيب المذهل، الذى وقعت عليه عيونهم وعقولهم وقلوبهم، فى اللحظة التالية مباشرة، والذى اتسعت له عيونهم، وانتفضت له قلوبهم، وصرخت به عقولهم، على نحو لم يحدث فى حياتهم قط ..

فأمام عيونهم وعقولهم الذاهلة، نهض (أدهم) من فراشه، بحيوية مدهشة، وكأنما لم يفقد وعيه، أو يرقد على فراش المرض لحظة واحدة، فى حياته كلها، وأدار ذراع العملاق، ليجبره على الالتفات إليه، وهو يقول فى غضب صارم، تتجمّد له الدماء فى العروق:

- لن يمكنك أن تمسهم بسوء .

ثم هوت قبضته اليسرى على أنف العملاق مباشرة كالقنبلة ، وهو يضيف :

- إنهم أهلى .

رفع قاتل (المافيا) الروسية الآخر فوهة مدفعه نحوه ، ومال المصاب ليلتقط مدفعه بدوره ، فى حين أطلق العملاق صرخة قتالية غاضبة وحشية ، و ...

وخُيِّل للثلاثة أن السماء قد انقضت على رءوسهم بغتة ، دون سابق إنذار ..

لقد تحرك (أدهم) ، الذى كان يرقد على فراش المرض منذ لحظة واحدة ، بسرعة وحيوية مذهلتين ، فلكم العملاق فى معدته لكمة كالقنبلة ، ولم يكد هذا الأخير ينحنى ، حتى اعتمد على كتفيه ، ووثب يركل الآخر فى صدره ووجهه بقدميه فى آن واحد ، قبل أن يعود للاستقرار على الأرض ، فى نفس اللحظة التى صرخ فيها المصاب ، وهو يدير فوهة مدفعه نحوه :

- لا .. هذا مستحيل !

لم تكن عبارته قد اكتملت بعد ، عندما جذب (أدهم) العملاق إليه ، بقوة خرافية ، ورفعه عن الأرض بمقدار عشرة سنتيمترات ، على الرغم من ضخامته ، قبل أن يلقى به نحو المصاب بكل قوته ..

وبمنتهى العنف ، ارتطم العملاق بالمصاب ، الذى أطلق شهقة ألم ورعب .

وبكل ذهوله وفرحته ، هتف (قدرى) :

- رباه ! (أدهم) .. إنه ..

قاطعه الدكتور (أحمد) ، وهو يهتف بدوره :

- مستحيل !

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها هتافه ، هبَّ العملاق واقفًا على قدميه ، وأطلق صرخة غاضبة وحشية ، وهو ينقضّ على (أدهم) ، ويهوى على فكه بلكمة ساحقة ..

ولكن (أدهم) انحنى بسرعة ومرونة ، وهو يقول بالروسية :

- ربما كانت ضرباتك قوية أيها الوغد .

ثم مال جانبًا ، متفاديًا لكمة أخرى أكثر عنفًا ، مستطردًا :

- المشكلة الوحيدة ، هى أنها لاتصيب الهدف أبدًا .

قالها ، ثم اعتدل بحركة حادة ، مضيفًا :

- كهذه .

مع آخر حروف الكلمة الأخيرة ، هوت قبضته على فك قاتل (المافيا) الروسية العملاق كصاعقة قوية ، فى يوم عاصف ، انتزعت الضخم من مكانه ، كما لو أنه مجرد هر صغير ، وأطاحت به ثلاثة أمتار إلى الخلف ، وكأنما ارتطم به قطار مسرع ، ليصطدم بالنافذة الزجاجية الكبيرة ، ويحطمها فى عنف ، ليهوى من الطابق ، إلى الحديقة الخلفية ، وهو يطلق صرخة مذعورة ، قبل أن يرتطم بأرضية الحديقة بدوى مكتوم ..

وأمام العيون الست الذاهلة ، اعتدل (أدهم) ، وشد قامته ، وبدا قويًا واثقًا متماسكًا ، وهو يسألهم :

- أأنتم بخير ؟!

وهنا .. هنا فقط ، تفجرت انفعالاتهم فى آن واحد .. وإلى أقصى حد ..

* * *

« إنها معجزة !! »

نطق نائب مدير المخابرات العامة المصرية العبارة فى حماسة منفعلاً ، وهو يلوح بذراعيه فى فراغ الحجرة ، قبل أن يضيف بابتسامة كبيرة :

- لقد استعاد سيادة العميد (أدهم) وعيه ونشاطه دفعة واحدة ، وعلى نحو غير طبيعى ، يخالف كل القواعد العلمية والطبية ، حتى إنهم يعاودون فحصه الآن ، لمعرفة تفسير ماحدث .

ابتسم المدير ، وهو يسترخى فى مقعده بارتياح ، قائلاً :

- الواقع أننى أرى ماحدث طبيعيًا للغاية .

التفت الحضور كلهم إليه فى دهشة ، وأحدهم يهتف :

ـ طبيعى ؟!

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. التقارير السابقة كلها كانت تؤكد أنه لايوجد سبب علمى واحد ، لاستمرار حالة فقدان الوعى ، التى يمرّ بها (ن ـ ١) ، خاصة وأن جراحه كلها قد عولجت والتأمت ، ومعدلاته الحيوية عادت إلى مستوياتها ونسبها الطبيعية ، اللهم إلا إذا كان هذا مجرّد إجراء نفسى دفاعى ، يقوم به العقل الباطن ، حتى يحصل الجسد على كفايته ، من الاسترخاء والراحة ، ويعوّض للجهد فوق الطبيعى ، الذى بذله خلال الأسابيع الماضية ، ويستعيد حيويته ونشاطه المعهودين .. وفى الموقف الذى وصفه التقرير الأخير ، كان أقرب ثلاثة إلى قلب (أدهم) وحياته ، يواجهون خطر الموت ، على بُعد متر واحد منه .. شقيقه ، وحبيبته ، وصديقه الوحيد .. وكان من الطبيعى أن يدرك عقله الباطن هذا ، وأن يصرخ

ليوقظ عقله الواعى ، ليهب جسده كله ، بكل مايختزنه من طاقات هائلة ، وقدرات نمت مع الزمن والخبرة لنجدة من أسماهم أهله .

تبادل الرجال نظرة صامتة ، قبل أن يقول أحدهم مبتسمًا :

ـ ربما هذا هو التفسير العلمى لما حدث ، ولكنه لاينفى أنها معجزة ، بكل المقاييس .

ابتسم المدير بدوره ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

تساءل رجل آخر فى اهتمام :

ـ السؤال الآن هو ما هى الخطوة التالية ؟!

أجابه ثالث فى سرعة :

ـ أن يعود سيادة العميد (أدهم) إلى (القاهرة) بالتأكيد .

امتزجت أصوات الكل ، فى موافقة واستحسان للفكرة ، فأشار إليهم المدير بالصمت ، وهو يميل إلى الأمام ، متسائلاً :

- لقد أبلغتهم بهذا فى (موسكو) بالفعل ، وفريق الأطباء المشترك يفحص (ن - ١) الآن ، للتأكد من أن كل شىء على مايرام ، وبعدها ستتم عودته إلى هنا بطائرة خاصة ، وفقًا لأوامر السيد رئيس الجمهورية .

سأله أحد الرجال :

- وماذا عن أفراد فريقه ؟!

هز المدير كتفيه ، قائلاً :

- هجوم قتلة (المافيا) الروسية منع سفرهم بالطبع ، واستلزم إعادة استجوابهم ، كشهود هذه المرة ، ولو سار كل شىء على مايرام ، سيعودون برفقة أستاذهم .

تساءل أحد الرجال :

- ألا تظن أنه من الأفضل ياسيدى ، أن نرسل فريقًا من رجالنا لحمايتهم ؟

تنهد المدير ، وهو يجيب فى ضيق واضح :

- هذا أفضل بالتأكيد ، ولكن السلطات الروسية

رفضت هذا بمنتهى الشدة والصرامة ، وأصرت على أنها قادرة تمامًا على حمايتهم ، فى المرحلة القادمة .

تساءل رجل آخر فى قلق :

- وهل تعتقد أن هذا صحيح يا سيدى ؟!

صمت المدير طويلاً ، قبل أن يجيب فى حزم :

- كلا .

وفى أجسادهم جميعًا ، سرت قشعريرة باردة كالثلج .. فمضمون الجواب المقتضب الحازم كان مخيفًا .. إلى أقصى حد ..

* * *

تراجع (يورى إيفانوفيتش) فى مقعده ، فى استرخاء واثق ، وألقى رأسه إلى الخلف ، وهو ينفث دخان سيجارته القصيرة ، ذات الرائحة النفاذة ، فى سماء حجرته الواسعة ، مغمغمًا فى لهجة أقرب إلى الاستمتاع :

- إذن فقد استعاد ذلك المصرى وعيه ، بحركة درامية مسرحية أنيقة ! عظيم .. هذا يجعل اللعبة أكثر إمتاعًا .

رمقته فتاة مفتولة العضلات ، قصيرة الشعر إلى حد ينافس جنود البحرية ، بنظرة باردة ، من عينيها الزرقاوين الواسعتين ، وداعبت خنجرها الحاد بأناملها ، قبل أن تقول :

- من الواضح أنه هناك شىء لايمكننى فهمه أو استيعابه ، فى هذه العملية كلها ، فقد أرسلت فريقين من رجالنا ، لمنع بعض المصريين من مغادرة (موسكو) ، واغتيال مصرى فاقد الوعى ، وبذلت فى سبيل هذا الكثير من الجهد والمال ، وعلى الرغم من هذا ففشل الفريقين لايثير فى أعماقك أدنى شعور بالضيق .. بل أراك تبتسم فى ثقة وارتياح ، وكأنك كنت تتوقّع هذا وتنتظره .

اتسعت ابتسامته ، وهو ينفث دخان سيجارته مرة أخرى ، قائلاً بنفس الهدوء والاستمتاع :

- بالتأكيد .

ثم لوّح بذراعه ، وهو يدير عينيه إليها ، متابعًا :

- لو نجح هجومان مباشران كهذين ، لكان معنى هذا أن نظم الأمن عندنا فاشلة ومنهارة تمامًا ، بخلاف الحقيقة .

سألته فى شىء من الاستنكار :

- إذن فقد كنت تتوقّع الفشل ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وجذب نفسًا عميقًا ، كاد يلتهم سيجارته القصيرة كلها ، وهو يجيب :

- دون أدنى احتمال آخر .

هتفت مستنكرة هذه المرة :

- وماميزّ هذا ؟! ألاتخشى أن تنهار سمعتنا أكثر ، مع فشل كهذا ؟!

هزّ كتفيه بلامبالاة ، وراح يراقب دوائر الدخان ، التى يصنعها من بين شفتيه فى مهارة ، وهو يجيب :

- كل ماسيدركه الناس ، هو أننا مازلنا على قيد الحياة ، ثم إن من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا ..



هزَّ كتفيه بلامبالاة ، وراح يراقب دوائر الدخان ، التي يصنعها من بين شفتيه في مهارة .

وغمز بعينه ، مضيفاً في سخرية :

ـ وطويلاً ..

هزّت رأسها في بطء ، قائلة :

ـ مازلت لا أفهم الأمر كله .

التقط نفساً عميقاً آخر ، التهم ماتبقى من سيجارته ، التي ألقاها أرضاً في إهمال ، دون أن يحاول حتى إطفاءها ، وهو يقول :

ـ لو أنك في موضع رجال المخابرات الروسية ، وواجهت موقفاً كهذا ، فما أول ما تسعين إليه .

هزّت كتفيها ، مجيبة :

ـ أن أتخلَّص من المشكلة كلها .. وأعيد هؤلاء المصريين إلى بلدهم .

أشار بسبّابته ، وهو ينفث دخان سيجارته الأخير ، مجيباً بسعادة عجيبة :

ـ بالضبط .

سألته مستنكرة :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالتحديد ؟!

أشعل سيجارة أخرى ، وهو يجيب بعينين متألقتين :

ـ ستعلمين قريبًا .. قريبًا جدًا .

نطقها ، وعاد يتراجع فى مقعده ، وينفث دخان سيجارته الجديدة فى بطء واستمتاع ، وعيناه تتألقان بذلك البريق الوحشى المجنون ، الذى يعنى أن الساعات القادمة تحمل حتمًا مفاجآت جديدة ..

ومخيفة ..

بحق .

* * *



٥ ـ الشيطان !

« حمدًا لله على سلامتك يا سيادة العميد .. »

نطقت (ريهام) بالعبارة فى لهفة وسعادة ، وهى تشدّ قامتها فى اعتداد رسمى ، أمام (أدهم) ، الذى ابتسم ، قائلاً :

ـ استريحى أيتها الملازم .. لسنا هنا فى ثكنة عسكرية .

قال (شريف) فى لهفة مماثلة :

ـ ولكنك أستاذنا .. أعنى قائدنا يا سيدى ، ولا يمكننا أن نقف أمامك ببساطة ، كأى إنسان عادى .

غمغم (علاء) :

ـ هذا صحيح .

ابتسمت (منى) ، وهى تنقل بصرها بينهم ، بنظرة تحمل شيئًا من الحنان والإعجاب ، قبل أن تلتفت إلى (أدهم) ، قائلة :

- إنهم مبهورون بك .

هتف (قدرى) فى حماسة :

- أمر طبيعى .

تنحنح (شريف) فى حرج ، قبل أن يقول :

- الواقع أننا مبهورون بكم جميعًا ياسيِّد (قدرى) .

قال (قدرى) فى دهشة :

- أنا أيضًا ؟!

ابتسم (أدهم) ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

- ولِمَ لا ياصديقى .. أنت أسطورة حية فى مضمارك .

هتف (قدرى) :

- بل أنت الأسطورة الحقيقية فى عالمنا ياصديقى .

ضحك الدكتور (أحمد صبرى) ، وقال :

- هذا صحيح ، وخاصة بعد عودته المدهشة هذه ، التى سجلها الأطباء الروس فى مراجعهم بالفعل ، كواحدة من أعجب حالات الخروج من الغيبوبة ، فى تاريخ الطب كله .

حرك (أدهم) ذراعه القوية ، وهو يقول :

- المدهش فى هذا أننى أشعر بحيوية عجيبة تسرى فى عروقى ، على نحو لم أعهده فى نفسى ، منذ فترة طويلة .

أجابه الدكتور (أحمد) :

- هذا أمر طبيعى ، فالعلاج الحديث ، الذى استخدمه الروس معك ، والذى تم تطويره فى محطتهم الفضائية السابقة (مير)(*) ، يعتمد على تحسين قدرة الخلايا على تبادل الأكسجين ، مع الدم ، الذى يتم إذابة قدر أكبر من الأكسجين فيه ، وهذا يبعث فيك شعورًا بالنشاط .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حذر :

- إلى حين .

(*) محطة فضائية روسية (سوفيتية سابقًا) ، منحت الروس ريادة خاصة ، فى تجارب وتكنولوجيا الفضاء ، وساعدتهم على القيام بعدد من التجارب والاختبارات ، فى ظروف انعدام الوزن ، وغياب العوامل الأرضية التقليدية ، ولقد انتهت مدة صلاحيتها ، وسقطت فى المحيط الهادى ، فى ٢٠ مارس ٢٠٠١م .

بدا الاهتمام على وجه (أدهم) ، فى حين تساءلت (منى) فى قلق :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

تردد لحظة ، قبل أن يحسم أمره ، مجيبًا :

ـ يعنى أن هذا النشاط لن يستمر طويلاً ، وإنما سينتهى مع انخفاض نسبة الأكسجين فى الدم ، إلى المستوى الطبيعى .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ ومتى يحدث هذا ؟!

تنهد ، وهز رأسه ، مجيبًا فى أسف :

ـ لايمكن تقدير هذا بدقة ..

ثم عاد يستدرك فى سرعة :

ـ ولكننى أعتقد ، من وجهة النظر الشخصية ، أن ...

قبل أن يتمّ عبارته ، اندفع (سيرجى كوربوف) إلى الحجرة ، قائلاً :

ـ المسئولون حسموا أمركم أخيرًا .

استدار إليه الكل دفعة واحدة ، وسأله (أدهم) ، فى شىء من السخرية :

ـ وفيم كان يحيرهم أمرنا يا عزيزى (سيرجى) ؟!

تجاهل (سيرجى) عبارة (أدهم) الساخرة ، وهو يكمل :

ـ لقد تعافى الزميل (أدهم) ، وتجاوز مرحلة الخطر ، ويمكنه الآن العودة إلى وطنه ، وستصحبونه جميعًا بالطبع .

ابتسم (أدهم) ، قائلاً :

ـ أظنكم فهمتم المضمون يارفاق .. أصدقاؤنا الروس سئموا ما تثيره حولنا هنا من مشكلات ومتاعب ويحاولون طردنا بأسلوب أنيق .

مرة أخرى تجاهل (سيرجى) عبارة (أدهم) ، ليواصل فى صرامة :

- موعد ووسيلة عودتكم سيظلان سراً، لا أعلم بـه، أو تعلمون به، إلا قبل الرحيل بساعة واحدة.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف بالأسلوب نفسه :

- ولقد طلبت أن أتولى مسئولية حمايتكم بنفسى .

سأله (أدهم) فى هدوء :

- وهل وافق المسئولون على هذا ؟!

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين، وهو يقول :

- ولماذا يرفضون ؟!

تبادل (علاء) و(شريف) و(ريهام) نظرة صامتـة، حملت عشرات المعانى، فى نفس اللحظة التى أجابه فيها (أدهم)، فى هدوء عجيب :

- من يدرى ؟!

تطلع إليه (سيرجى) بضع لحظات فى صمت، قبـل أن يقول بكل صرامة :

- ثق بأننى سأراجع كل شىء بنفسى هذه المرة .

أجابه (أدهم) فى حزم جاد :

- أنا أثق بك تمام الثقة يا (سيرجى) .

تراجع (سيرجى)، وهو يرمقه بنظرة عميقة، وكأنما يحاول أن يستشف ما إذا كان هذا القول جاداً أم ساخراً، ثم لم يلبث أن غمغم فى صرامة :

- أشكرك .

ثم دار على عقبيه، واندفع يغادر المكان فى حدة ..

ولثوان بعد انصرافه، لم ينبس أى من الحاضرين بحرف واحد، حتى قطعت (منى) هذا الصمت، متسائلة فى قلق :

فيم تفكرُ بالضبط يا (أدهم) ؟!

أجابها فى بطء :

- فى الفساد، الذى انتشر هنا، حتى كاد يهيمن على كل شىء، فلم يعد من الممكن الوثوق بأى شخص .

هتف (قدرى) :

ـ رباه ! هل تشك فى (سيرجى) ؟!

أشار (أدهم) بسبابته ، قائلاً فى حزم :

ـ (سيرجى كوربوف) ضابط مخابرات نزيه ، ولكنه مجرد رجل واحد فى كل الأحوال .

سأله شقيقه فى اهتمام قلق :

ـ ما الذى تتوقعه بالضبط يا (أدهم) ؟!

صمت (أدهم) طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب فى حزم صارم :

ـ أن ندافع عن أنفسنا .

ثم استدار إلى أفراد فريقه الصغير ، مضيفاً :

وهذا دوركم الجديد .

ارتفع حاجبا (منى) فى إعجاب وانبهار ، وخفق قلبا (قدرى) والدكتور (أحمد) فى قوة وانفعال ، عندما شد (علاء) و(شريف) و(ريهام) قاماتهم ، فى وقفة عسكرية ثابتة ممشوقة ، إثر عبارة (أدهم) وأجابوه بتحية عسكرية قوية حازمة ، جعلته يبتسم ، متمتماً :

ـ عظيم .

وهنا أدركت (منى) أنها تشهد لحظة البداية ..

بداية العملية الجديدة ..

عملية (الأستاذ) ..

* * *

مع البرد القارس ، والجليد المنهمر بلا انقطاع ، فى تلك الليلة من ليالى (موسكو) ، خلت الشوارع من المارة أو كادت ، إلا من سيارة واحدة ، تراقص ضوء مصباحيها ، وهى تنطلق بسرعة كبيرة نسبياً ، فوق الأرض الزلجة ، حتى توقفت إلى جوار سيارة أخرى ضخمة ، من سيارات نقل الأثاث ، وانطفأ مصباحاها ، فى نفس الوقت الذى غمغم فيه سائقها فى خشونة :

ـ وصلنا يا جنرال .

زمجر الرجل الجالس فى مقعد السيارة الخلفى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ اخفض صوتك يا رجل ، ولا تذكر أية ألقاب .

ابتسم السائق فى سخرية ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا جنرال .

زمجر الرجل مرة أخرى ، وهو يغادر السيارة فى حدة ، ويتلفت حوله فى عصبية زائدة ، قبل أن يتجه إلى السيارة الضخمة ، حيث استقبله رجل مفتول العضلات ، فى استهتار واضح ، وهو يسأله فى غلظة :

ـ هل تحمل أية أسلحة يا جنرال ؟!

أجابه الجنرال فى حدة :

ـ بالطبع .

مدّ الرجل يده إليه ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ أعرنى إياه إذن ، حتى تنتهى من لقاء الزعيم .

انعقد حاجبا الجنرال فى غضب ، ولكنه انتزع مسدسه من غمده فى عصبية ، ودفعه إلى الرجل ، الذى قلّبه فى يديه ، وقال فى سخرية :

ـ أهذا ما يعطونكم إياه ؟! يا للسخافة ! إننا نستخدم أسلحة أكثر قوة وحداثة .

همهم الجنرال بعبارة ساخطة غير مفهومة ، فقهقه الرجل ضاحكاً ، ودقّ الباب الخلفى للسيارة الضخمة ، قائلاً :

ـ لقد وصل .

فتحت الشقراء مفتولة العضلات الباب ، وقالت فى برود :

ـ ادخل يا جنرال .

مدّت يدها إليه ، وجذبته فى قوة مدهشة إلى داخل السيارة ، ثم أغلقت الباب خلفه ، مستطردة فى صرامة :

ـ إنك متأخر سبع دقائق .

شعر الجنرال داخل السيارة بدفء مريح ، فخلع معطفه ، وناولها إياه ، قائلاً :

ـ الحضور إلى هنا كان مجازفة كبيرة ، فى مثل هذه الظروف .

أتاه صوت من نهاية المكان ، يقول فى صرامة ساخرة :

أظنك تتقاضى ما يكفى للمجازفة يا رجل .

أدار الجنرال عينيه بحركة حادة إلى مصدر الصوت ، وانعقد حاجباه وهو يتطلع إلى ظهر مقعد ضخم ، يتصاعد من خلفه دخان سيجارة ، ذات رائحة نفاذة ، ولم يكد يفعل حتى دار المقعد حول نفسه ، ليظهر (يورى إيفانوفيتش) ، الذى أكمل بنفس اللهجة الصارمة الساخرة :

ـ أليس كذلك ؟!

مطّ الجنرال شفتيه فى حنق ، وقال فى عصبية :

ـ أسلوبك هذا لا يروق لى يا (يورى) .. شقيقك (إيفان) كان أكثر لباقة ، و ...

قاطعه (يورى) فى صرامة غاضبة :

ـ ولقى مصرعه بغباء .

زفر الجنرال فى عصبية ، وقال :

ـ فليكن يا (يورى) .. لست أريد البقاء هنا طويلاً .

نفث (يورى) دخان سيجارته القصيرة ، وتراجع فى مقعده الكبير ، وهو يقول فى لهجة لا تبعث أبدًا على الارتياح :

ـ هات ما لديك يا رجل .

ازدرد الجنرال لعابه ، قبل أن يقول :

ـ المصريون سيرحلون فجر بعد الغد .. ستحملهم طائرة خاصة ، من طائرات المخابرات الروسية ، من مطار سرى ، فى شمال (موسكو) ، حتى (هلسنكى) ، ومن هناك ستحملهم طائرة مصرية إلى (القاهرة) .

صمت (يورى) وكأنما يدرس الأمر فى ذهنه ، ثم لم يلبث أن مال إلى الأمام ، وسأل الجنرال فى اهتمام صارم :

ـ هل أحضرت كل التفاصيل ؟!

ناوله الجنرال ورقة مطبوعة ، وهو يجيب فى توتر :

- ها هى ذى .

التقط (يورى) الورقة ، وطالعها بكل اهتمام ، قبل أن يسأل :

- من سيتولى عملية التأمين والحراسة ؟!

ازدرد الجنرال لعابه مرة أخرى ثم أجاب فى اقتضاب :

- نحن .

تألقت عينا (يورى) ، بذلك البريق الوحشى ، وهو يقول :

- عظيم .

لوّح الجنرال بيده ، قائلاً فى شىء من العصبية :

- القيادة العليا أسندت مهمة التأمين والحراسة ، وحماية فريق المخابرات المصرى ، إلى الكولونيل (سيرجى كوربوف) .

ابتسم (يورى) فى سخرية ، قائلاً :

- ومن هذا الـ (كوربوف) ؟! السوبرمان الأمريكى ؟!

أجابه الجنرال فى عصبية :

- كلاّ ، ولكنه ضابط مخابرات مخضرم ، قوى الشكيمة ، شديد الصرامة ، ونظيف إلى أقصى حد .

نفث (يورى) دخان سيجارته الكثيف ، قبل أن يلقيها أرضًا فى إهمال ، قائلاً فى سخرية :

- هناك قاعدة علمتنى إياها الحياة ، وأكدتها تلك القائمة ، التى أحمل نسختها الوحيدة الآن .

ثم مال نحو الجنرال ، مضيفًا فى حزم ساخر :

- لايوجد من لايمكن شراؤه .

هتف الجنرال فى حزم واثق :

- إلا هذا .

قال (يورى) فى تحد :

- هذا ما تتصوّره .

أجابه الجنرال فى صرامة :

- بل هذا ما أثق به ثقة عمياء ، وما أثبتته سنوات عمله الطويلة .

ثم لوّح بذراعه ، مستطردًا فى حدة :

- أراهن على أن قائمتكم لاتحوى حتى مايشبه اسمه .

انعقد حاجبا (يورى) فى شدة ، وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، وأشعل سيجارة أخرى ، راح ينفث دخانها فى صمت وعمق ، وهو يتطلّع إلى الجنرال ، وكأنما يحاول التأكُّد من صدق مايعنيه ، ثم لم يلبث أن أشار بسبّابته ، قائلاً :

- لابد أن يبتعد (سيرجى كوريوف) هذا عن الساحة إذن .

لوّح الجنرال بذراعيه ، وهو يقول فى توتر :

- وكيف أيها العبقرى ؟! إنه المسئول الأوّل عن حمايتهم وأمنهم !

أجابه (يورى) فى صرامة :

- كل شىء له حل .

ثم تراجع فى مقعده أكثر ، وهو يكمل ، مشيرًا إلى رأسه :

- مادمت تمتلك الذكاء الكافى .

سأله الجنرال فى حذر فضولى :

- ماذا ستفعل بالضبط ؟!

تطلّع إليه (يورى) بنظرة امتزجت فيها الصرامة بالسخرية ، وهو يقول :

- ستعرف هذا فى حينه .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف بلهجة آمرة غليظة :

- هيا .. انصرف .

انتفض جسد الجنرال فى عنف ، إزاء هذا الأسلوب الفج الوقح ، واحتقن وجهه فى شدة ، وانقبضت أصابعه بحركة غريزية ، وكأنما يهم بلكم (يورى) فى أنفه ، إلا أن هذا الأخير ألقى إليه رزمة من الدولارات ، من فئة المائة ، وهو يضيف بنفس اللهجة :

- أظن هذا يكفى ، لقاء ما بذلت من جهد الليلة .

التقط الجنرال رزمة الدولارات ، وتألقت عيناه فى جشع ، وهو يحاول إحصاءها ببصره ، قبل أن يدسها فى جيبه فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يتراجع (يورى) فى عطيته ، وطار من عقله كل تفكير فى الكرامة والعزة ، وهو يتراجع ، قائلاً :

- أشكرك يا سيد (يورى) .. أشكرك كثيرًا .

فتحت (زوشا) الباب المعدنى لمؤخرة صندوق السيارة ، وتركته يثب خارجها ، ثم أغلقته خلفه فى إحكام ، قبل أن تلتفت إلى (يورى) ، قائلة :

- أعتقد أن لديك خطة للظفر بهم أيها الزعيم .

تألقت عينا (يورى) ، بذلك البريق الوحشى الجنونى ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

تطلعت إليه لحظة ، قبل أن تقول :

- هل تعنى أننا سنقرأ نعيهم فى الصحف ، قبل فجر بعد غد ؟!

ارتفع حاجباه بدهشة مفتعلة ، وهو يقول :

- نعيهم ؟! مطلقًا يا عزيزتى (زوشا) .. من يرغب فى قتلهم بهذه السرعة ؟!

سألته فى دهشة قلقة :

- ماذا تنوى أن تفعل بهم إذن ؟!

تألقت عيناه بذلك البريق المخيف مرة أخرى ، وهو يجيبها باستمتاع عجيب :

- هل تابعت يومًا قطًا ، وهو يداعب فأرًا ، قبل أن يلتهمه ؟! إنه يضمن سيطرته على الموقف كله أولاً ، ثم يتراجع متظاهرًا بالتخلى عن الأمر كله ، ويمنح الفأر فرصة للفرار ، وعندما يتصور هذا الأخير أن الطريق قد صار آمنًا ، وينطلق سعيًا للنجاة ، ينقض عليه القط مرة أخرى .. وتتكرر اللعبة مرات ومرات ، حتى يصاب الفأر بالإنهاك ، والقط بالملل ، فتبرز أنياب الأخير ومخالبه ، لتضع نهاية حاسمة لحياة الأول .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

- الحياة ليست بسيطة ، كلعبة القط والفأر .

هتف فى حماسة :

- بل هى كذلك ، لمن يحسن لعب دور القط .

قالت فى حدة :

- وماذا لو أنهم يصرّون أيضًا على دور القط ؟!

تألّقت عيناه أكثر ، وهو يقول :

- فى هذه الحالة ، ستصبح اللعبة أكثر إمتاعًا .

زفرت فى ضيق ، وهزّت رأسها ، قائلة :

- أخشى أن تتعقّد الأمور ، وتفلت خيوطها من بين أصابعك ، مثلما حدث مع ..

بترت عبارتها ، قبل أن تنطق اسم شقيقه ، ولكنه أدرك ما تعنيه ، فانعقد حاجباه لحظة فى غضب ، ثم لم يلبث أن استعاد ابتسامته الواثقة ، وهو يقول :

- لو أنهم عن حسن ظنى ، فلن يمكنهم أبدًا الثقة بحماية رجال المخابرات الروسية .. بل سيسعون لتأمين أنفسهم بأنفسهم .

سألته فى حذر شغوف :

- وماذا فى هذا ؟!

لوّح بيده ، مجيبًا :

- فى هذه الحالة ، سيتركون خلفهم ألف خيط ، يمكن أن يتحوّل ، بإدارة ذكية لدفة الأمور ، وبمعاونة جنرالنا المخبول ، إلى أدلة إدانة قوية ، تقلب دفة الأحداث كلها رأسًا على عقب .

تطلّعت إليه فى حيرة قلقة متوترة ، قبل أن تلوّح بيدها مفتولة العضلات ، قائلة فى شىء من الحدة :

- (يورى) .. إنك تبدو غامضًا إلى حد مستفز .. لست أفهم ما تسعى إليه بالضبط .

أطلق ضحكة عالية مجلجلة جذلة ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلاً :

- ستفهمين كل شىء فى حينه يا عزيزتى (زوشا) ..
كل شىء فى حينه بالضبط .

لم تفهم (زوشا) أيضًا ما الذى يعنيه، ولكن الشىء الوحيد، الذى أدركته جيدًا، ودون ذرة واحدة من الشك، أن الساعات القادمة ستشهد جحيمًا من نوع خاص ..

جحيمًا يحمل توقيع (يورى إيفانوفيتش) ..

شيطان (المافيا) ..

الروسية .

* * *



٦ - العـودة ..

«معدلاتك الحيوية بدأت تنخفض بالفعل يا (أدهم) ..»

أطلّ القلق، كل القلق، من صوت ولهجة الدكتور (أحمد صبرى)، وهو ينطق العبارة، وعيناه تطالعان شاشات أجهزة الفحص والرصد، المتصلة بجسد (أدهم) فسأله هذا الأخير فى هدوء :

- كم من الوقت فى رأيك ؟!

هزّ الدكتور (أحمد) رأسه، قائلاً :

- هذا يتوقّف على ما ستبذله من جهد، خلال الساعات القادمة .

سألته (منى) فى توتر :

- ألا يمكن تفادى هذا ؟! أعنى أليس من الممكن أن تتم إذابة الأكسجين فى دمه الآن، حتى لا يمرّ بمرحلة رد الفعل هذه ؟!



أطلّ القلق ، كل القلق ، من صوت ولهجة الدكتور (أحمد صبرى) ، وهو ينطق العبارة ، وعيناه تطالعان شاشات أجهزة الفحص والرصد .

تنهّد الدكتور (أحمد) وقال :

ـ كلاّ للأسف ، فارتفاع نسبة الأكسجين فى الدم ، فى الظروف العادية ، يؤدى إلى إحباط عملية التنفس الطبيعية(*) ، ولكن الروس كانوا يستخدمون أجهزة خاصة ، لتحفيز التنفس ، فى أثناء مد الجسم بالمزيد من الأكسجين ، وحالة الغيبوبة كانت تساعد على تنظيم هذا آليًا ، ثم إن الجسم البشرى له طاقته ، مهما كانت قوة وكفاءة صاحبه ، ولو تجاوز الإنسان قدراته لبعض الوقت ، فهو يضطره بعدها للنوم أو يسقط فى غيبوبة عميقة ، حتى يستعيد نشاطه وحيويته(*) .

ابتسم (أدهم) ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ شقيقى العزيز .. إننا نؤمن جيدًا بتفوقك الطبى فى فريقنا المحدود هذا ، ولكن دعنا لا نضيع المزيد من الوقت ، خاصة وأننا لا ندرى متى سيتم ترحيلنا بالضبط .

لوّح الدكتور (أحمد) بيده ، قائلاً :

(*) حقيقة طبية ..

ـ فليكن .. لن يمكننى فهم طبيعة عملكم هذه أبدًا ، ولكننى فعلت كل ما طلبتموه منى ، وأحضرت المواد الكيماوية ، وجهاز الكمبيوتر النقّال الصغير .

ابتسمت (ريهام) ، وقالت وأصابعها تتعامل مع ما أمامها ، فى سرعة ومهارة :

ـ لقد قمت بعمل رائع فى الواقع يا سيّدى .

تسارعت أصابع (شريف) ، وهى تضرب أزرار الكمبيوتر النقّال الصغير ، وهو يقول :

ـ هذا ما كنا نحتاج إليه بالضبط .

عقد (علاء) ساعديه أمام صدره ، وهو يتابع الجميع فى صمت وانتباه ، فى حين لوّح (قدرى) بيده ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل تتصوّرون أن رجال المخابرات الروسية من السذاجة ، بحيث يجهلون ما نفعله هنا ؟!

قال (شريف) ضاحكًا :

ـ ما أتصوره هو أنهم يتميزون غيظًا الآن ، لأننا أفسدنا كل أجهزة المراقبة والتنصت فى المكان .

قال (قدرى) ، فى عصبية أكثر :

ـ وما الذى يجبرهم على احتمال هذا ؟!

اعتدل (أدهم) جالسًا ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ هذا شأنهم .. دعنا نهتمّ نحن بشئوننا الآن .

وبإشارة أخرى من يده ، توقّف الكل عما يفعلونه ، وارتفعت أنظارهم إليه فى انتباه واهتمام ، فقال فى حزم :

ـ كما سمعتم الآن ، معدلاتى الحيوية تنخفض ، وربما يسقط عقلى فى غيبوبة أخرى ، لاستعادة نشاطه القديم ، ولو أضفنا إلى هذا كون (قدرى) وشقيقى (أحمد) مدنيين ، فسيعنى هذا أن العبء كله سيقع عليكم .. (منى) ، وأنتم يا (علاء) ، و(شريف) و(ريهام) ..

قالت (منى) فى توتر :

ـ هذا لو احتاج الأمر لتدخلنا .

صمت (أدهم) بضع لحظات ، وهو ينتزع كل الأسلاك المتصلة بجسده ، قبل أن ينهض ، قائلاً :

ـ لو راجعنا ما حدث منذ البداية ، لأدركنا أنه هناك ثغرة كبيرة فى نظام الأمن هنا .. هم أدركوا هذا أيضًا ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى موقعها وحجمها بعد ، وهذا يجعل كل الاحتمالات أمامنا متساوية ، وكل شخص فى موضع اشتباه ، حتى يثبت العكس .

سألته (منى) فى اهتمام :

ـ حتى (سيرجى كوربوف) ؟!

أجابها (أدهم) على الفور :

ـ (سيرجى) ضابط مخابرات شريف ، وأنا أثق به ثقة مطلقة ، ولكنه كما أخبرتكم ، مجرد رجل واحد ، مهما بلغت نزاهته ، ولو أن حجم الاختراق أكبر من اللازم ، فلن يمكنه أن يفعل شيئًا .

غمغم (قدرى) فى عصبية :

ـ عظيم .. هل ينبغى أن نشعر بالارتياح ؟!

قال (أدهم) فى حزم :

ـ بل على العكس ، ينبغى أن نشعر بالقلق والتوتر ، وأن نفترض أن (المافيا) الروسية متوغلة فى جهاز المخابرات هنا حتى النخاع ، وأنهم يعرفون ما نجهله نحن ، عن موعد ووسيلة عودتنا إلى (القاهرة) ، و ...

تنحنح (شريف) في شيء من الحرج والتوتر ، وهو يقاطع (أدهم) ، قائلا :

ـ معذرة أيها القائد .. ربما لا توجد إشارة واضحة عن موعد ووسيلة عودتنا إلى (القاهرة) ، ولكننى عثرت داخل شبكة معلوماتهم ، على بعض النقاط ، التى ربما تعنى الكثير ، لو وضعناها فى مواضعها الصحيحة كما علمتنا .

التفت إليه الكل فى اهتمام بالغ ، وسأله (أدهم) :

ـ مثل ماذا ؟!

تنحنح مرة أخرى ، وهو يجيب :

- جدول نوبتجيات الحراسة الرئيسى تم تعديله مساء اليوم ، بحيث تتغيَّر الدورية فى الرابعة صباحًا ، بدلاً من الثامنة كالمعتاد ، ولقد تلقت إحدى الطائرات التابعة لجهاز المخابرات الروسى أمرًا بالتموين والاستعداد للإقلاع ، خلال الساعات الاثنتى عشرة القادمة ، فى حين لم يتم إبلاغ الأمر لأى طيار بصفة رسمية ، ثم إن قسم المركبات قد أعدَّ ، بأوامر مباشرة من الجنرال (كوليسكى) ، قائد جناح الأمن الخارجى ، سيارة مصفحة كبيرة ، ذات صندوق خلفى كبير ، وهى متأهبة للانطلاق فى أية لحظة ، وأخيرًا تم مد فترة خدمات الطوارئ لطاقم حراسة أحد المطارات السرية ، الخاصة بالجهاز ، بحيث تنتهى ورديتهم فى السادسة ، بدلاً من الثالثة والنصف ، وكل هذا قد يوحى بأنهم يستعدون لنقلنا ، داخل السيارة المصفحة الكبيرة ، وتحت حراسة مشددة ، وفى سرية تامة ، إلى تلك المطار السرى حيث ستحملنا الطائرة إلى دولة قريبة على الأرجح ، ومن هناك ستعيدنا طائرة أخرى إلى (القاهرة) .

هتفت (منى) فى انبهار :

- يا إلهى ! إنك عبقرى بحق ، كما وصفك (أدهم) .

تضرَّج وجه (شريف) بحمرة الخجل ، وهو يغمغم :

- الواقع أن ..

قاطعه (أدهم) فى اهتمام :

- الواقع أن ما توصل إليه (شريف) رائع بحق ، ولكنه يضاعف من قلقى فى الواقع ، إذ إن منظمة (المافيا) الروسية تضمّ أيضًا عددًا من عباقرة الكمبيوتر ، ومادام هو قد نجح فى كشف الأمر ، عبر مجموعة من المعلومات المتناثرة ، فهذا يعنى أن (المافيا) يمكنها هذا أيضًا .

امتقع وجه الدكتور (أحمد) وهو يقول :

- يا إلهى ! أيعنى هذا أن ..

قاطعه (أدهم) فى حزم :

- مازال لايعنى أكثر من مجرد استنتاج .

ثم أدار عينيه فى وجوه الجميع ، مضيفًا :

- ولكن هـذا لايمنعنا من اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة .

في نفس اللحظة التي راح يوزِّع فيها الأدوار على رفاقه ، ويشرح لهم خطته ، كان أحد رجال المخابرات الروسية يقول لـ (سيرجي كوربوف) في حنق ، في القاعة الملاصقة بالضبط :

- لايمكننا أن نسمح لهم بهذا ياكولونيل .. لقد أفسدوا أجهزة التنصُّت والمراقبة ، ولم نعد ندري مايفعلونه داخل تلك الحجرة .

قال (سيرجي) في برود صارم :

- وما الذي يمكن أن يفعلوه ؟!

هتف ضابط المخابرات الروسي في حدة :

- أي شيء .

سأله (سيرجي) بنفس البرود والصرامة :

- مثل ماذا ؟!

احتقن وجه الرجل ، وهو يقول في انفعال عصبي :

- إنني أتحدث عن قواعد الأمن يا كولونيل .

بدت نظرة (سيرجي) غاضبة مخيفة ، على الرغم من احتفاظ صوته بنفس اللهجة الباردة الصارمة ، وهو يقول :

- قواعد الأمن ؟! لو أنك ترغب في التحدُّث عن قواعد الأمن بحق ، فلتعلم أن كل ما يسعى إليه هؤلاء هو حماية وتأمين أنفسهم فحسب ، وأن الخطر الحقيقي لايكمن داخل تلك الحجرة ، بل خارجها .. في أعماقنا نحن .. في عجزنا عن أن نكتشف الثغرة المخيفة في كياننا ، والتي تتسلَّل منها (المافيا) ، في رداء من الفساد ، لتحطِّم كل ماصنعناه ، منذ أيام الـ(كي . جي . بي)(*) .. إننا لانستطيع أن نمنع هؤلاء المصريين من السعي لحماية أنفسهم ، إلا إذا كنا قادرين على تأمين الحماية لهم مائة في المائة .. هل يمكنك أن تقسم إن باستطاعتنا هذا ؟!

(*) بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، عام ١٩٩١م ، تم حل المخابرات السوفيتية ، وتقسيمها إلى ثلاثة أفرع مختلفة .. المخابرات المركزية (FSK) ، وقطاع الأمن الداخلي ، وحرس الحدود .

احتقن وجه الرجل أكثر ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ لو اعترف (لوزسكى) ، فربما ..

قاطعه (سيرجى) فى صرامة شديدة :

ـ ربما ؟!

عقد الرجل حاجبيه فى عصبية أكثر ، وهو يقول :

ـ حسن .. لايمكننا أن نضمن لهم حماية كاملة ، فى ظل هذه الظروف ، ولكن ينبغى أن ..

قاطعه (سيرجى) ، قائلاً :

ـ أن يضحوا بحياتهم ، لإثبات صحة نظمنا ؟!

زفر الرجل فى استسلام ، قائلاً :

ـ كلاّ بالتأكيد .

اعتدل (سيرجى) فى ثقة ظافرة ، وقال فى حزم :

ـ عظيم .. كل ما علينا إذن هو أن نقوم بواجبنا ، وألا نمنعهم أيضًا من القيام بواجبهم .

غمغم الرجل فى توتر :

ـ بالطبع يا كولونيل .. بالطبع ..

تطلّع إليه (سيرجى) بضع لحظات ، فى صرامة صامتة ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ أريد استجواب (لوزسكى) مرة أخرى .

لوّح الرجل بيده ، قائلاً :

ـ إنه مازال محتجزًا فى حجرة الاستجواب .

استدار (سيرجى) بكتفيه العريضين ، وهو يقول :

ـ فليكن .. هناك بضعة أمور ، أريد سؤاله عنها .

غادر المكان بخطوات سريعة واسعة ، راح يقطع بها الممر الممتد أمامه ، وعقله يعيد دراسة الموقف للمرة الألف ..

هناك حتمًا اختراق رهيب للمخابرات الروسية ، من قبل منظمات (المافيا) الإجرامية ..

اختراق بلغ حدًا لا يمكن السكوت عليه ..

ومن المحتم أن يتم إجراء تحقيقات واسعة فى هذا الشأن ، واستجواب كل ضباط المخابرات بلا استثناء ..

فربما ..

توقف تفكيره فى رأسه بغتة ، عندما لمح أحد ضباط الإدارة يغادر حجرة الاستجواب ، حيث يحتجزون (لوزسكى) الخائن ..

ضابط لايحق له دخول هذا القسم ..

وفى صرامة ، هتف (سيرجى) يستوقفه ، فاستدار إليه الرجل بحركة حادة ، وامتقع وجهه فى شدة ، و (سيرجى) يتقدم نحوه ، قائلاً :

ـ ماذا كنت تفعل فى حجرة الاستجواب ؟!

هزّ الضابط كتفيه ، فى توتر ملحوظ ، ولوّح بذراعه بلا معنى ، وهو يجيب فى عصبية واضحة :

ـ لاشىء .. كنت أتأكد فقط من أن كل شىء على مايرام ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، مال (سيرجى) جانبًا فجأة ..

وفتح باب حجرة الاستجواب ..

ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من نظرة واحدة ..

صحيح أن (لوزسكى) كان يرقد بهدوء ، على ذلك الفراش الصغير ، فى ركن الحجرة ، ولكن خيط الدم ، الذى يسيل من طرف شفتيه ، كان يحمل الحقيقة كلها ..

وبحركة حادة ، التفت (سيرجى) إلى الضابط ، هاتفًا فى غضب :

ـ أنت أيضًا ؟!

قبل حتى أن يكتمل هتافه ، كان الضابط قد انتزع من حزامه مسدسًا ، وصوّبه نحوه ، و ...

وبحركة سريعة متقنة ، لاتتناسب مع جسده الضخم ، مال (سيرجى كوربوف) جانبًا متفاديًا رصاصة صامتة ، انطلقت من كاتم الصوت ، فى طرف فوهة مسدس الضابط ، ثم انقضّ على هذا الأخير كخرتيت غاضب ..

وبكل قوته ، لكم الضابط فى معدته ، لكمة بدت للرجل كألف قنبلة ، حتى إن جسده قد انثنى من عنف ، وجحظت عيناه عن آخرهما ، وطار مسدسه من يده ، ليرتطم بالجدار ، ويسقط أرضًا ..

وفى اللحظة التالية مباشرة ، هوى (سيرجى) على فك الرجل بلكمة أشد عنفًا ، انتزعته من مكانه ، وألقته على مسافة أربعة أمتار ، وهو يطلق شهقة ألم رهيبة ..

وفى محاولة أخيرة ، ثنى الضابط ركبته ، وجذب من جراب حول جوربه مسدسًا آخر ، ولكن (سيرجى) وثب نحوه ، قائلاً فى غضب صارم :

ـ إذن فقد فعلتها .

وأمسك معصم الضابط ، قبل أن يطلق رصاصة مسدسه الثانى ، ثم لواه فى عنف وقسوة ، وهو يكمل :

ـ أنت تستحقها إذن .

انطلقت صرخة الضابط قوية عنيفة ، وترددت فى المكان كله ، حاملة كل ألم الدنيا ، عندما تحطم معصمه ، وسقطت كفه على نحو مخيف ، وهى ما زالت تقبض على المسدس ، فقال (سيرجى) فى قسوة شديدة :

ـ هل تشعر بالألم يا رجل ؟! دعنى أحقنك بمادة مسكنة قوية إذن .

قالها ، ثم هوى على فك الضابط بلكمة حملت كل غضبه وثورته ..

لكمة كاد ينخلع لها عنق الرجل ، الذى جحظت عيناه عن آخرهما ، وسقط فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها رجال المخابرات الروسية إلى المكان من كل صوب ، وأحدهم يهتف :

ـ ماذا حدث ؟!

نهض (سيرجى) ، قائلاً ببروده الصارم المعهود :

ـ خائن جديد .

ثم أدار عينيه إلى الضابط المسئول عن حماية حجرة المصريين ، مستطردًا :

ـ فى أقل من أربع وعشرين ساعة .

حدّق الرجال فى زميلهم الفاقد الوعى ، قبل أن يتساءل أحدهم ، فى توتر شديد :

ـ وماذا فعل ؟!

مطّ (سيرجى) شفتيه فى غضب ، وهو يجيب :

ـ قتل (لوزسكى) .

اتسعت عيون الرجال لحظة فى ذهول ، ثم اندفعوا نحو حجرة (لوزسكى) ، فى حين بصق (سيرجى) على الضابط الفاقد الوعى ، قبل أن يتجه نحو المصعد الخاص بطابق القيادة ، قائلاً :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فبعضهم لم يدرك حجم المأساة بعد .

توقّف أمام المصعد ، المخصّص للضباط من الرتب

الكبيرة وحدهم ، وأخرج بطاقته الممغنطة ، التى تحمل شفرته الخاصة ، ودسّها فى الفراغ الخاص بها ، فانفتح باب المصعد ، ودلف هو إليه ، مستطردًا فى سخط :

ـ إما أن نفعل شيئًا ، أو ..

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى لوحة أرقام الطوابق ، التى راحت ترتسم عليها الأرقام ، قبل أن يضغط أية أزرار ، فى عد تنازلى سريع ، و ...

وفهم (سيرجى) بسرعة ، ما يعنيه هذا ..

ووثب إلى الأمام ، قبل أن يعود باب المصعد إلى موضعه ، ودفع جسده عبر الفتحة المتبقية ..

ولكن العد التنازلى بلغ الصفر بغتة ..

ودوى الانفجار ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

انعقد حاجبا مدير المخابرات العامة المصرية فى شدة ، وهو يطالع تلك البرقية العاجلة ، الواردة من (موسكو) ، قبل أن يرفع عينيه إلى نائبه ، قائلاً فى قلق :



ووثب إلى الأمام، قبل أن يعود باب المصعد إلى موضعه، ودفع جسده عبر الفتحة المتبقية .. ولكن العد التنازلي بلغ الصفر بغتة ..

ـ مصعد ملغوم، داخل مبنى تابع للمخابرات الروسية ؟!

يا للوقاحة !

وافقه نائبه بإيماءة من رأسه، وقال فى انفعال :

ـ الانفجار كاد يقتل (كوربوف)، لولا أن وثب خارج المصعد فى اللحظة الأخيرة، ولكن هذا لايمنع أن إصاباته خطيرة للغاية، و ...

قاطعه المدير مكملاً، فى لهجة توحى بأنه يحدث نفسه :

ـ ولن يمكنه قيادة مجموعة تأمين وحماية رجالنا .

سأله نائبه فى انفعال أكثر :

ـ هل تعتقد أن هذا هو المقصود ياسيِّدى ؟!

لوَّح المدير بيده، مجيبًا فى حزم :

ـ ألديك تفسير آخر ؟!

ونهض من خلف مكتبه، متابعًا :

- من الواضح أن (سيرجى كوربوف) كان العقبة الأولى أمامهم ، باعتباره رجل مخابرات صارمًا نظيفًا ، لا يمكنهم شراؤه ، وبمصرعه ستنتقل القيادة إلى شخص آخر ، يستطيعون التعامل معه .

وتوقف بالقرب من النافذة ، قبل أن يستدير إلى نائبه ، قائلاً :

- أتعلم ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجابه النائب فى سرعة :

- أن سيادة العميد (أدهم) ومن معه فى خطر .

أشار المدير بسبابته ، قائلاً فى حزم :

- بل الأمر أكثر خطورة بكثير .. لو أنك نظرت إلى الموقف بنظرة أكثر شمولاً ، لأدركت أن ما فعله رجال (المافيا) الروسية ، يعنى أنهم على دراية بمعلومات ، يفترض أنها موجودة بخانة السرية المطلقة ، فى قلب المخابرات الروسية .. أى أن عدد العارفين بها لايتجاوز خمسة أفراد ، باستثناء (سيرجى) نفسه ،

وهؤلاء الخمسة من الجنرالات ، الذين يمثلون قيادة جهاز المخابرات الروسية ، وتسرُّب المعلومات إلى المنظمة الإجرامية يعنى أن أحد هؤلاء الخمسة على الأقل عميل لها ، وهذا أمر بالغ الخطورة .

سأله نائبه فى توتر زائد :

- وماذا عن رجالنا هناك ؟!

انعقد حاجبا المدير بشدة ، وهو يجيب :

- وفقًا لهذه المعلومة ، فهم يواجهون خطرًا رهيبًا الآن .

ثم صمت لحظة ، وهو يفكِّر فى عمق ، قبل أن يضيف فى حزم صارم :

- ونحن لن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذا التجاوز الصارخ .

سأله النائب فى اهتمام شديد :

- وماذا تقترح ياسيِّدى ؟!

أجابه المدير على الفور :

ـ عقد اجتماع طارئ لكل القيادات هنا ، وتحديد موعد عاجل لمقابلة السيد رئيس الجمهورية شخصياً .

وعاد حاجباه ينعقدان ، وهو يضيف بكل صرامة الدنيا :

ـ لابد أن نسعى لإنقاذ رجلنا ، حتى ولو حطمنا كل القواعد والأعراف الدبلوماسية ، وتجاوزنا كل الحدود .

وازداد انعقاد حاجبيه ، مع استطرادته :

ـ بلا استثناء .

وكان هذا يعنى مرحلة جديدة من الصراع ..

مرحلة بالغة العنف والخطورة ..

إلى أقصى حد .

* * *

٧ ـ رأساً على عقب ..

انطلقت ضحكة (يورى إيفانوفيتش) عالية مجلجلة ، ساخرة ، مجنونة ، داخل تلك القاعة الصغيرة ، أسفل أحد البارات الرخيصة ، فى قلب (موسكو) ، وسحب نفساً طويلاً نهماً ، من سيجارته القصيرة ، ثم نفثه فى بطء ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً لرفيقته ، وحارسته الخاصة (زوشا) :

ـ ضربة مزدوجة منفذة بمهارة وعبقرية يا عزيزتى (زوشا) .. لقد أزحت ذلك المخابراتى المنيع عن الطريق ، ومهدت للخطوة التالية فى الوقت ذاته .

مطت (زوشا) شفتيها ، وهى تستنفر عضلاتها المفتولة ، لترفع الأثقال الموضوعة أمامها فى قوة ، وهى تقول :

ـ لست أدرى لماذا لاتقتلهم مباشرة ، وتضع حداً لكل هذا ؟!

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ لأن هذا يجرّد الأمر من متعته الرئيسية .

حبست أنفاسها ، وهى ترفع الأثقال بذراعيها إلى أعلى لبضع ثوان ، قبل أن تلقيها أمامها ، قائلة :

ـ أنا أميل إلى الحسم .

نفث دخان سيجارته الكثيف مرة أخرى ، قائلاً فى سخرية :

ـ ومن قال إنك تجيدين قواعد اللعبة يا عزيزتى ؟!

مطّت شفتيها مرة أخرى ، والتقطت جهازًا لتقوية العضلات ، راحت تضغطه بأصابعها القوية ، وهى تقول :

ـ إنها ليست لعبة عبقرية إلى هذا الحد يا (يورى) .

قال فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

ثم مال إلى الأمام ، وسألها فى شغف :

ـ ما الخطوة التالية إذن ، فى هذه اللعبة ؟!

رقدت على ظهرها أرضًا ، لتمارس بعض التمارين الرياضية ، وهى تجيب :

ـ سيتولى أحد من يعملون لحسابنا قيادة فريق الأمن والحراسة ، بدلاً من ذلك الـ (كوربوف) ، وفى أثناء نقلهم إلى تلك الطائرة ، سيعمل على تسليمهم لرجالنا ، أو على الأقل ، سيمنح قتلتنا فرصة لتوجيه الضربة الحاسمة .

قال فى بطء :

ـ هكذا ؟!

ثم تراجع مطلقًا ضحكة ساخرة عالية أخرى ، جعلتها تعتدل ، قائلة فى عصبية :

ـ هل قلت ما يستحق هذا ؟!

كرّر ضحكته الساخرة ، وهو يلقى سيجارته أرضًا ، ثم أشار إليها بيده ، قائلاً بابتسامة تحمل كل سخرية الدنيا :

ـ هل تعلمين يا عزيزتى (زوشا) .. لو أن الجميع يفكرون بأسلوبك هذا ، فستصبح أكثر ألعاب حياتى إمتاعًا ؟!

تطلّعت إليه بضع لحظات فى حيرة عصبية ، قبل أن تسأله فى حدة :

ـ (بورى) .. ماذا ستفعل بالضبط ؟!

تألّقت عيناه بذلك البريق الوحشى ، وهو يقول :

ـ قديمًا ، كان شقيقى (إيفان) يتعامل باعتباره أكثر أفراد العائلة براعة وذكاءً ، ولكننى كنت أدرك دومًا أننى العبقرى الحقيقى .. ولقد حانت لحظة إثبات هذا .

سألته فى حدة أكثر :

ـ ماذا يدور فى رأسك بشأنهم بالضبط ؟!

أجابها فى سرعة عجيبة :

ـ أمر يفوق كل قدرتهم على التصوّر .

سألته باهتمام مشوب بالتوتر :

ـ وما هو ؟!

تألّقت عيناه أكثر ، وهو يجيب :

ـ ستعرفين فى حينه يا عزيزتى ! فقط فى حينه .

وعادت ضحكته تجلجل فى المكان ، حاملة كل الوحشية ..

وكل الجنون ..

معًا ..

* * *

هزّ (شريف) رأسه ، وهو ينهض واقفًا ، بعد أن فحص بقايا المصعد ، وقال فى قلق واضح :

ـ عمل محترف تمامًا .. لقد استخدموا شريحة إليكترونية كمفجّر ، بحيث تبدأ دائرة التفجير عملها ، مع دخول (سيرجى) إلى المصعد .

سألته (منى) فى دهشة :

- (سيرجى) بالتحديد ؟!

أجابها (شريف) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

- نعم .. (سيرجى كوربوف) بالتحديد ، فهذا المصعد لاتنفتح أبوابه إلا بوساطة الشفرة المسجلة على البطاقات الممغنطة ، التى لايحملها سوى الضباط ، من أصحاب الرتب الكبيرة ، وكل ضابط هنا له شفرة خاصة ، تحدّد هويته ورتبته ، والنطاق الأمنى المصرّح له بالتعامل معه ، ودائرة التفجير الإليكترونية تعمل فقط ، عند إدخال شفرة بطاقة (سيرجى) .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

- هذا يعنى أن (المافيا) الروسية قد اخترقت هذا الجهاز حتى النخاع ، ووصلت إلى ما يسمح لها بمعرفة شفرة البطاقة الخاصة بأحد كبار ضباطه .

هتف (قدرى) :

- إنها كارثة .

وقال الدكتور (أحمد) فى توتر شديد :

- الأمر يعنى أيضًا أن لديهم خبراء ، فى مجالات شتى .

أشارت (ريهام) بيدها قائلة :

- ولكن ليس فى مجال التفجير ، فالكمية التى استخدموها ، من مفجّر (C4) ، لم تكن تكفى لقتل الكولونيل (سيرجى) إلا لو وضع القنبلة أمامه مباشرة ، ومجرد وجود نصف جسده خارج المصعد ، كان يكفى لإنقاذه من الموت على الأقل ، و ...

قاطعها صوت صارم غليظ ، يقول بالروسية :

- بالروسية أو الإنجليزية يا سادة ، وليس بالعربية .

استدار الكل فى حركة واحدة ، إلى رجل قوى البنية ، على الرغم من نحوله ، أصلع الرأس ، صارم الملامح ، حاد القسمات ، تقدّم نحوهم ، وخلفه فريق من المسلحين ، وهو يكمل :

- ثم من سمح لكم بالتواجد هنا ؟

أجابه (أدهم) بلهجة قوية :

- إننا نحاول المساعدة فحسب يا جنرال (كوليسكى) .

انعقد حاجبا الرجل فى صرامة ، وهو يقول :

- إذن فأنت تعرفنى .

قال (أدهم) بنفس اللهجة القوية :

- هذا جزء من طبيعة عملى يا جنرال .

رمقه الرجل بنظرة طويلة ، قبل أن يقول فى بطء عصبى :

- من الواضح أن معلوماتكم عنا أكثر مما كنا نتصور ياسيِّد (أدهم) .

قال (أدهم) فى لهجة تنطوى على التحدِّى :

- هذا صحيح .

لم يرق هذا الأسلوب للجنرال ، فقال فى صرامة :

- ربما تكون رجل مخابرات متميِّزًا فى بلدك ياسيِّد (أدهم) ، ولكن تذكَّر أنك هنا مجرَّد مواطن أجنبى ، متهم بالتداخل فى أمر يخصّ شئوننا الداخلية .

عقد (أدهم) ساعديه أمام صدره ، وهو يقول :

- عجبًا ! لست أذكر أن المسئولين فى بلدك قد وجهوا لنا اتهامًا رسميًا فى هذا الشأن .

أجابه الجنرال ، فى صرامة أكثر :

- ربما ليس فى واقعة (إيفانوفتيش) .

ثم استدار يشير إلى المصعد المحطَّم ، مضيفًا :

- ولكن ماذا عن محاولة اغتيال (كوربوف) .

فجَّرت عبارته موجة من التوتر فى نفوس الجميع ، فيما عدا (أدهم) ، الذى سأله فى صرامة :

- وماذا عنها ؟!

بدا الجنرال (كوليسكى) واثقًا ظافرًا ، وهو يقول :

- تتصوَّرون أنكم عباقرة .. أليس كذلك ؟! لقد كشفتم كل ما وضعناه فى حجرتكم ، من أجهزة التنصُّت والمراقبة ، وأفسدتم مفعولها كلها .

ثم تألقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ فيما عدا واحداً .

هتف (شريف) ، برد فعل غريزى :

ـ مستحيل !

رمقه (كواليسكى) بنظرة ساخرة ، قبل أن يقول :

ـ التلفاز الكبير فى حجرتكم ، له شاشة تقوم بعمل مزدوج ، فهى تعرض ماتبثه محطات البث العادية ، وتلتقط الصور والأصوات فى الوقت ذاته .

انعقد حاجبا (شريف) بشدة وتوتر ، وغمغمت (ريهام) فى عصبية :

ـ من الطبيعى ألا ننتبه إلى شىء كهذا .

تابع الجنرال ، وكأنه لم يسمعها :

ـ وعبر تلك الشاشة ، سجلنا كل ما فعلتموه فى الحجرة ، وكل محاولاتكم لاختراق نظمنا الأمنية ، وشبكة الكمبيوتر لدينا سجلت اختراقكم لها ، ونجاحكم فى الاستيلاء على بعض أسرارنا .. وكلاهما جريمة يعاقب عليها القانون هنا .. وبشدة .

هتفت (منى) فى حدة :

ـ أهذا ما كنتم تخططون له ؟!

تجاهلها الجنرال ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ ولكننى واثق من أن الدولة كانت ستتغاضى عن هذا لظروف سياسية دبلوماسية ، لولا استغلالكم لخبراتكم ، وكل ماتعلمتموه فى مخابراتكم ، وماجمعتموه من معلومات عنا ، لاغتيال أحد رجالنا .. الكولونيل (سيرجى كوربوف) .

صاح الدكتور (أحمد) فى حدة :

ـ أى قول أحمق هذا ؟!

وهتف (قدرى) مذعوراً .

ـ ما الذى تحاول أن تفعله بنا يا رجل ؟!

أما (أدهم) وفريقه ، فقد تبادلوا نظرة صامتة حازمة ، قبل أن يقول الأول فى صرامة :

ـ فكرة سخيفة بحق يا جنرال (كواليسكى) .

عاد الجنرال يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ ولكن كل الأدلة تؤيدها بشدة ، خاصة وأن فريقكم يضمّ خبيراً فى الإليكترونيات ، يمكنه صنع تلك الشريحة المفجِّرة ، وخبيرة فى المتفجرات والقنابل الموقوتة ، وكلاهما كان بإمكانه التحرك فى المكان بحرية ، و ...

قاطعه (أدهم) بغتة :

ـ آه .. إنه أنت إذن !

بتر الجنرال (كواليسكى) عبارته ، ليسأله فى حدة :

ـ أنا ماذا ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) فى صرامة شديدة ، وهو يجيب :

ـ أنت الخائن ، الذى يعمل هنا ، لحساب (المافيا) الروسية ..

احتقن وجه (كواليسكى) بشدة ، وهمّ بقول شىء ما ، قبل أن يتمالك نفسه بغتة ، ويقول فى حدة :

ـ فليكن يا رجل المخابرات المصرى .

ثم تراجع ثلاث خطوات إلى الخلف ، ليحتمى بفريق رجاله المسلّح ، وهو يستطرد فى غضب :

ـ إننى أوجه لكم رسميًا تهمة محاولة اغتيال الكولونيل (سيرجى كوربوف) ..

قال (أدهم) فى غضب :

ـ إذن فهذه هى اللعبة .

هزّ (كواليسكى) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

ـ بل نصف اللعبة فقط يا رجل المخابرات المصرى العبقرى ، فوفقًا لما سيشهد به هؤلاء الرجال رسميًا ، أنتم قاومتم الاعتقال بعنف ، وحاولتم قتلى .

اتسعت عينا (قدرى) فى رعب ، وتراجعت (منى) بحركة غريزية حادة ، وسرت موجة من التوتر فى أجساد أفراد الفريق الثلاثة ، وانعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، فى حين صاح الدكتور (أحمد) :

- رباه ! هل جننت يا رجل ؟!

تراجع الجنرال (كواليسكى) خطوة أخرى ، وهو يتجاهل كل هذا ، ويشير بيده إلى رجاله ، قائلاً بلهجة غاضبة ، صارمة ، آمرة :

- اقتلوهم يا رجال .

لم يكد أمره يكتمل ، حتى ارتفعت فوهات المدافع الآلية لرجال الأمن الروس ، فى وجوه (أدهم) ورفاقه ..

وأصبح الموت على قيد خطوة واحدة ..

أو أقل ..

كثيراً ..

* * *

« (يورى) .. لم أعد أحتمل .. »

هتفت (زوشا) بالعبارة فى حدة ، وهى تجفف العرق الذى يغمر جسدها بمنشفة كبيرة ، فرفع (يورى) عينيه إليها فى استهتار ، قائلاً :

- هل تعترفين بالفشل ؟!

أجابته فى عصبية :

- أعترف بأننى عاجزة دوماً عن فهمك .

أشار إلى رأسه ، وهو يميل نحوها ، قائلاً :

- لأن العباقرة لايفهمهم سوى العباقرة يا عزيزتى .

كادت تصرخ فى وجهه ، بأن هناك شعرة واهية ، بين الجنون والعبقرية ، إلا أنها أدركت ، فى اللحظة الأخيرة ، أن عبارة كهذه قد تدفعه إلى قتلها ، دون وازع من ضمير أو شفقة ، فاكتفت بأن تقول :

- هل ستخبرنى أم لا ؟!

هزّ كتفيه ، وأشعل سيجارة جديدة ، وهو يقول :

- هؤلاء المصريون ليسوا مجرّد أصحاب متاجر صغيرة ، رفضوا دفع مقابل حمايتنا لهم ، وينبغى أن نقتلهم بقسوة ، حتى يصبحوا عبرة للآخرين .. إنهم فريق من المخابرات المصرية ، وهذا يعنى أن عملهم لايعتمد على النشاط والمهارة الجسدية فحسب ، بل يمتدّ

أيضًا إلى النشاط العقلى ، الذى يعتبر العماد الرئيسى لأى نجاح يحققونه فى مضمارهم .. والانتصار على مثل هؤلاء له متعة خاصة ، لاتدانيها متعة أخرى ، فى الوجود كله ..

قالت فى توتر :

ـ وله أيضًا مخاطر خاصة ، لاتقارن بأية مخاطر أخرى ، خاصة وقد شاهدنا ما فعلوه بشقيقك (إيفان) ، على الرغم من كل ما أحاط به نفسه من القوة .

أشار إليها بسبابته ، قائلاً :

ـ أنت قلتها .. القوة .. (إيفان) كان رجل مخابرات سابقًا ، وعلى الرغم من هذا فقد كان يعتمد اعتمادًا كاملاً على قوته ، وثرائه ، وقدرته على السيطرة على الآخرين .

ثم رفع سبابته إلى رأسه ، مضيفًا بشراسة جنونية :

ـ أما أنا فأعتمد على ذكائى .. على عبقريتى ، فى التعامل مع مثل هؤلاء .

تضاعف قلقها مع عبارته ، فهزت كتفيها ، قائلة :

ـ أتعشم أن تسير الأمور كما ترغب .

ابتسم فى غموض ، وهو يقول :

ـ ما أتعشم أنا ، هو أن يكون المصريون عند حسن ظنى .

سألته فى اهتمام :

ـ ماذا تتوقع منهم .. الاستسلام الفورى ؟!

هز رأسه نفيًا ، ونفث دخان سيجارته طويلاً فى بطء ، قبل أن يجيب فى جذل :

ـ بل المقاومة .. وبمنتهى العنف .

حدقت فى وجهه لحظة ، قبل أن تتصور أنها استوعبت ما يرمى إليه ، فهتفت :

ـ آه .. مقاومتهم ستدفع رجال المخابرات الروسية لقتلهم .. أليس كذلك ؟!

مط شفتيه ، وهز رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ سأشعر بإحباط هائل ، لو حدث هذا يا عزيزتى .

هتفت فى عصبية :

- ما الذى تتوقعه ؟! أن ينتصروا على رجال المخابرات الروسية ؟!

كادت عيناها تتفجران دهشة ، عندما أجابها فى سرعة :

- بالتأكيد .

حدقت فى وجهه بذهول ، ولكنه تراجع فى مقعده بهدوء ، ونفث دخان سيجارته مرة أخرى ، قبل أن تتألق عيناه ، وهو يضيف :

- وسيكون انتصارهم هذا هو بداية هزيمتهم .. هزيمتهم المنكرة ..

نطقها ، وعيناه تتألقان بذلك البريق الوحشى الجنونى أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

لم تكد فوهات مدافع رجال الأمن الروس ترتفع ، فى وجه (أدهم) ورفاقه ، حتى دوى من خلفهم انفجار محدود ، جعلهم يستديرون جميعًا إلى الخلف ، فى حركة غريزية واحدة ، ويديرون مدافعهم نحو مصدر الانفجار ، و ...

ومع التفاتتهم ، تحرك خمسة من المقاتلين ، فى آن واحد ..

(أدهم) ..

و (منى) ..

وأفراد فريق المستحيل ..

حتى (شريف) ..

فى لحظة واحدة ، ووفقًا لخطة احتياطية ، وضعها (أدهم) نفسه ، انقض الخمسة على رجال الأمن ، قبل أن يعودوا بأبصارهم إليهم ، على نحو كامل ..

ودون الدخول فى تفاصيل فنية وقتالية معقدة ، يكفى أن نجرى هذه المعادلة البسيطة ..

فريق مسلح ، من رجال الأمن الروس يواجه خمسة من المقاتلين المصريين ، على رأسهم الأستاذ نفسه ..

(أدهم صبرى) ..

رجل المستحيل ..

النتائج بكل بساطة يساوى اثنتى عشرة ثانية بالضبط ، هى كل المدة التى استغرقها القتال العنيف ، الذى جحظت له عينا (كوالسكى) ، وهو يتراجع فى ذعر ودهشة ، ويحاول سحب مسدسه ، و ...

« خطأ يا جنرال .. »

اخترقت عبارة (أدهم) الصارمة أذنه ، فى نفس اللحظة التى التصقت فيها فوهة مسدس باردة بصدغه ، فاتسعت عيناه أكثر ، وأفلت مقبض مسدسه ، وتركه يسقط أرضًا ، وهو يقول :

ـ لا .. لاتقتلنى .

هتفت (ريهام) فى غضب :

ـ لسنا أوغادًا مثلك يا رجل .

أدار (أدهم) عينيه إليها فى صرامة ، وهو يقول بالعربية !

ـ لا تجاوزات .

مطت شفتيها ، مغمغمة :

ـ فليكن .

دفع (أدهم) رأس الجنرال بالمسدس الذى التقطه ، من أحد رجال الأمن الفاقدى الوعى ، وهو يقول :

ـ والآن يا جنرال ، دعنا نستعد للمرحلة التالية ، فأنا لن أفترض أنه هناك وسائل مراقبة هنا ، أو أن أحدًا من الآخرين قد أدرك ما حدث ! لأنك هددتنا بالقتل فى جرأة وقحة ، لايمكنك أن تستخدمها ، لو أنه هناك من يراقب المكان ، لذا فنحن الآن فى أمان تام مؤقتًا ، وما زال أمامنا ست ساعات ، قبل أن يستعد أحد لنقلنا إلى المطار ، وفقًا للجدول السابق .. قل لى إذن : هل توجد هنا سيارة كبيرة ، تصلح لحملنا جميعًا ؟!

هزّ الجنرال رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ لن تجدوا هنا الآن سوى سيارتى الخاصة ، والسيارة التى جاء فيها طاقم الحراسة هذا .

قالت (منى) فى توتر :

أظن الأخيرة تكفى .

غمغم (أدهم) :

ـ بالتأكيد .

ثم أدار بصره فى رجال الأمن الفاقدى الوعى ، بأزيائهم الرسمية ، قبل أن يضيف :

ـ على ألا يثير خروجنا من هنا الشبهات .

لم تمض ثلث الساعة ، على قوله هذا ، حتى رصد رجال المراقبة ، المسئولون عن البوابة الرئيسية ، الجنرال (جوزيف كواليسكى) ، وهو يغادر المبنى ، وحوله مجموعة من رجال الأمن ، بأزيائهم الرسمية المميّزة ، ومدافعهم الآلية القوية ، وسمعوه يقول بصرامته المعهودة :

ـ أريد تقريراً عن المصريين كل نصف ساعة .

أجابه رئيس فريق المراقبة عبر جهاز اتصال خاص :

ـ بالتأكيد ياجنرال .

كان كل شىء يبدو طبيعياً هادئاً ، ولكن رئيس فريق المراقبة الخارجية شعر بشىء من الدهشة والشك ، عندما استقلّ الجنرال سيارة طاقم الأمن ، بدلاً من أن يستقلّ سيارته الخاصة ، فقال عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ سيّدى الجنرال .. أكل شىء على مايرام ؟!

أجابه الجنرال فى عصبية :

ـ أجل .. قم بعملك ، ولاتشغل نفسك بما لايعنيك .

أدهش جوابه الرجل ، فتمتم :

ـ بالتأكيد يا جنرال .. بالتأكيد .

قالها ، واكتفى بمراقبة سيارة طاقم الأمن ، حتى غادرت مجال الرؤية ، ثم هزّ رأسه ، قائلاً فى توتر :

ـ هذا لا يروق لى أبداً .

قال زميله فى لا مبالاة :

ـ الجنرال (كواليسكى) رجل فظ دومًا .

هزَّ الأول رأسه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ ليس بهذا الأسلوب .

ثم التقط سمَّاعة الهاتف ، وقال فى حزم :

ـ على كل حال ، سأفعل ما تحتمه التعليمات ، وسأبلغ شكوكى إلى المستوى الأعلى ، مع تسجيل للمشهد .

هزَّ زميله كتفيه ، قائلاً :

ـ افعل ، مادام هذا يريحك .

فى نفس اللحظة ، التى راح الرجل ينقل فيها شكوكه لرؤسائه ، كان (أدهم) ، فى زى رجال الأمن ، يقول للجنرال (كواليسكى) ، فى شىء من السخرية :

ـ لقد أديت دورك ببراعة يا جنرال .. كنت أتصورَّ أنك ستقاوم ولو قليلاً .

أجابه الجنرال فى عصبية :

ـ ليست هناك حاجة لهذا .. تاريخك يؤكِّد أنك لن تقتلنى غيلة قط ، مادمت لا أحاول قتلك مباشرة .. هذا ليس من شيمتك ، ثم إنه لن تمضى دقائق ، حتى يعرف الرجال ما فعلتموه ، وعندئذ ستنقلب الدنيا كلها على رءوسكم .

قال (أدهم) فى سخرية :

ـ يبدو أن هذا يروق لك .

قالت (منى) فى بغض :

ـ بل من الواضح أنه يسعده .

قال الجنرال فى حدة :

ـ لن تجدوا جحر فأر للاختباء ، بعد أن ينطلق كل رجل أمن فى روسيا سعيًا خلفكم .

قال (علاء) :

ـ أراهن أنهم سيفعلون ، وفى جيوبهم أمر رسمى بقتلنا فور رؤيتنا .

هتف الجنرال :

- على الأرجح .

ضغط (أدهم) فرامل السيارة ، عند هذه النقطة ، والتفت إليه ، قائلاً :

- حسن يا جنرال .. ربما كانت المسرحية تروقك كثيرا ، ولكن المؤسف أن دورك فيها قد انتهى .. هيا .. اذهب .

هتفت (منى) مستنكرة :

- هل سنتركه يذهب هكذا ؟!

سألها فى سخرية :

- ماذا تقترحين ؟! أن نقتله ؟!

غمغمت (ريهام) :

- أعتقد أننى أفضل هذا .

رمقها (أدهم) بنظرة صارمة ، قبل أن يلتفت إلى الجنرال ، قائلاً فى سخرية :

- هيا .. أسرع بمغادرة السيارة يا جنرال ، قبل أن يصروا على إحصاء الأصوات ، وأضطر لقتلك بالفعل .

اتسعت عينا الجنرال ، وأسرع يغادر السيارة ، فمد (أدهم) يده ، يلتقط جهاز الاتصال من حزامه ، قائلاً :

- معذرة يا جنرال ، ولكن ألعاب الاتصالات هذه محظورة ، على من هم فى مثل عمرك .

نطقها ، ثم ضغط دواسة الوقود ، وانطلق مبتعدًا بالسيارة ، فتابعه الجنرال ببصره فى مقت حانق ساخط ، قبل أن يغمغم :

- هيا .. انطلقوا كما يحلو لكم ، فساعاتكم فى هذه الدنيا أصبحت معدودة .

ثم دس يده فى جيب سرواله الخلفى ، والتقط منه هاتفًا جوالاً صغير الحجم للغاية ، ضغط أزراره فى سرعة وتوتر ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال فى عصبية :



نطقها ، ثم ضغط بدواسة الوقود ، وانطلق مبتعدًا بالسيارة ، فتابعه الجنرال ببصره فى مقت حاقد ساخط ..

- (يورى) .. أنا الجنرال (كوليسكى) .. لست أدرى كيف تفعل هذا ، ولكنهم فعلوا ما تصوّرته بالضبط .. لقد فروا الآن فى سيارة طاقم الأمن كما توقّعت !

قهقه (يورى) ظافرًا ، على الجانب الآخر ، قبل أن يقول فى جذل :

- هنا مكمن العبقرية يا جنرال .. دعهم يتصوّرون أنهم يمسكون دفة الأمور بأيديهم ، فى حين أنهم مضطرون دومًا لاختيار ما تركته أنت لهم .

ثم صمت لحظة ، ليضيف فى زهو وحشى :

- هؤلاء المصريون يسيرون بمنتهى الدقة ، على الدرب الذى وضعته لهم منذ البداية ، وهذا يعنى أننى أقودهم كعرائس الماريونيت ، نحو مصيرهم المحتوم .. نحو جحيمى الخاص .. جحيم (يورى إيفانوفيتش) .

قالها ، وانطلقت من حلقه ضحكة ظافرة رهيبة ..

ضحكة نقلها الأثير إلى أذنى (كوليسكى) ، الذى امتقع وجهه فى شدة ، وخفق قلبه بين ضلوعه فى عنف ..

فلقد بدت هذه الضحكة كما لو أنها آتية من الجحيم ..

ومن أعمق أعماقه ..

ضحكة تعنى أن (أدهم) ورفاقه فى طريقهم إلى أخطر وأعنف مواجهة فى حياتهم ..

وربما آخرها ..

على الإطلاق .

* * *



٨ـ شقى الرّحى ..

بدا التساؤل القلق واضحًا ، على وجوه كبار رجال المخابرات المصرية ، الذين التفوا حول مائدة الاجتماعات الرئيسية ، تلبية للنداء العاجل ، الذى تلقوه من مكتب المدير شخصيًا ، فمثلما يحدث فى الأحوال بالغة الخطورة ..

كان الكل مجتمعًا فى الحجرة ، فيما عدا المدير نفسه ، الذى أجرى اتصاله بهم مرتين ليعلن أنه فى طريقه إليهم ، قادمًا من مؤسسة الرياسة مباشرة ..

وفى قلق شديد ، راح الرجال يتناقشون ، ويحاولون التوصل إلى طبيعة الموقف ، الذى يستدعى اجتماعًا عاجلاً طارئًا إلى هذا الحد ..

وفى توتر ، قال أحدهم ، وهو يشير بكفه :

ـ إنه العميد (أدهم) وفريقه حتمًا ، فهذا آخر ما كنا ننتظر حدوث أية تطورات به .

سأله أحد زملائه :

ـ هل تعتقد أنهم قد ظفروا به هناك ؟

استدار إليه الرجل ، قائلاً فى استنكار :

ـ بالعميد (أدهم) ؟!

تراجع زميله ، وهو يقول :

ـ ولمَ لا ؟! صحيح أنه أفضل وأبرع رجالنا ، ولكن لاتنس أنه ليس بكامل لياقته الآن ، والكل يسعى خلفه ، وآخر التقارير تؤكد أن (المافيا) الروسية تسعى لاستعادة قوتها وهيبتها ، ولقد تعرَّض وفريقه لمحاولة اغتيال بالفعل .

بعثت كلماته الشك والقلق فى نفوس الجميع ، فتمتم آخر :

ـ هذا محتمل بالتأكيد ، ولكننى ، ولسبب ما ، عاجز عن مجرَّد استيعاب الفكرة .

سأله الأوَّل فى توتر :

ـ ما سر هذا الاستدعاء المفاجئ إذن ؟

قبل أن يجيبه زميله ، وصل مدير المخابرات إلى حجرة الاجتماعات ، فتوقَّف الكل عن الحديث والنقاش ، حتى استقرَّ المدير على مقعده ، على رأس المائدة ، وقال على الفور :

ـ رجالنا فى (موسكو) يواجهون كارثة .

كانت عبارته الأولى كافية ، لأن يشتعل القلق والتوتر فى أعماقهم جميعًا ، حتى إن بعضهم هتف :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ التفاصيل لم تصلنا كاملة بعد ، ولكن ما علمناه حتى الآن ، وما وصلنى على نحو عاجل للغاية ، فى أثناء اجتماعى مع السيد رئيس الجمهورية ، لإقرار خطة السعى لإنقاذهم ، هو أن (ن ـ ١) ورفاقه ، بما فى هذا الدكتور (أحمد صبرى) ، و(قدرى) أيضًا ، قد اشتبكوا مع المخابرات الروسية ، وأسقطوا واحدة من فرق أمنها الداخلى ، واختطفوا أحد جنرالاتها أيضًا .

امتقعت وجوه الكل ، مع هذه الأخبار الرهيبة ، وهتف أحدهم :

- رباه ! هذا يحوّل الأمر بالفعل إلى كارثة ياسيّدى .. ولكن ما الذى يدعو سيادة العميد (أدهم) والآخرين إلى هذا العمل بالغ العنف ، والذى يضعهم فى خانة الأعداء الرسميين فى (روسيا) ، بعد كل مابذلنا من جهود دبلوماسية لاستعادتهم ؟!

مال المدير إلى الأمام ، وهو يقول فى حزم :

- كما أخبرتكم .. التفاصيل لم تصلنا بعد .. وربما تستغرق بعض الوقت حتى تصلنا ، ولكن الشىء الوحيد ، الذى ليس لدى ذرة واحدة من الشك فيه ، هو أن (ن-١) ليس بالأحمق أو المتسرع ، وأنه لو قاد الآخرين إلى أمر كهذا ، فلديه حتمًا من المبررات ، مايجعل هذا حتميًا .

تساءل رجل آخر فى عصبية :

- وما الذى يمكن أن يجعل انقلابًا كهذا أمرًا حتميًا ؟!

هزّ المدير كتفيه ، قائلاً :

- من يدرى ؟!

ثم استطرد فى سرعة ، قبل أن يمنح أيهم فرصة للتعليق أو التعقيب :

- وحتى نحصل على التفاصيل والتفسيرات ، لابد أن نبذل قصارى جهدنا ، لمؤازرة رجالنا ، والسعى لحمايتهم ، فى هذا الموقف شديد التعقيد .

قال أحد الرجال فى توتر :

- ألن يثير هذا أزمة دبلوماسية أكثر عنفًا ؟! أعنى أن حمايتهم تستلزم مواجهة المخابرات الروسية .

هزّ المدير رأسه ، قائلاً :

- ليت الأمر يقتصر على هذا .. المشكلة أن الأمر يستلزم مواجهة المخابرات الروسية ، و(المافيا) الروسية أيضًا ، وفى آن واحد .

لم يكن هذا خافيًا على أحد منهم ، ولكن الوسيلة التى نطقها بها المدير أصابتهم بما يشبه الصدمة ، حتى إن أحدًا منهم لم ينبس ببنت شفة لدقيقة كاملة ، قبل أن يكسر أحد الضباط جدار الصمت ، هاتفًا :

- رباه ! هذا يضع الأمر على قمة الخطورة ياسيّدى .

دق المدير سطح المائدة بقبضته ، وهو يقول :

- بالتأكيد ..

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا فى حزم :

ـ ولهذا نحن هنا .. لنضع خطة العمل اللازمة ، للتدخل فى (موسكو) ، ضد كل القواعد والأعراف الدبلوماسية ، لحماية وتأمين وإنقاذ فريق (ن ـ ١) .

غمغم أحدهم :

ـ المهم أن نفعل هذا ، قبل فوات الأوان .

هوت العبارة ، على الرغم من خفوتها ، كالصاعقة ، على رءوس الجميع ..

هذا لأنها قد فجرت أخطر جانب من الموقف كله ..

فليس المهم ما سيفعلونه ، أو بأى قدر يتدخلون ..

المهم أن يفعلوا فى الوقت المناسب ، وقبل فوات الأوان ..

وإلا ..

* * *

ران سكون تام على سيارة طاقم الأمن ، طوال دقائق عشر ، لاذ خلالها (أدهم) بصمت تام ، احترمه الجميع ، خاصة وأنه قد امتزج بعلامات تفكير عميق ، رسمت ملامحها فى وضوح على وجهه ، وهو يقود السيارة بنفسه ، عبر طرقات فرعية ، يحفظها عن ظهر قلب ، منذ زيارته الأولى لـ (موسكو) ، مع والده ـ رحمه الله ـ فى شرخ شبابه(*) ..

الكل كان يعلم أنه غارق فى تفكير عميق ، ولكن (منى) وحدها كانت تدرك أنه مهموم بشدة ، وأن ذهنه يكدح لوضع إطار مناسب ، للخروج من هذا المأزق ..

علاقتها الطويلة معه ، وارتباطها العميق به ، جعلاها قادرة على قراءة ما يدور فى أعماقه ، حتى ولو لم يفصح عنه أبدًا ..

شقيقه الدكتور (أحمد) أيضًا كان يدرك أنه يعانى ..

وبشدة ..

(*) مغامرة تصدر قريبًا عن سلسلة الأعداد الخاصة ..

إنه يقود الجميع عبر بلاد غريبة، وظروف مخيفة، ومخاطر رهيبة، لايعلم مداها إلا الله (سبحانه وتعالى)، فى نفس الوقت الذى يعانى فيه جسده من بقايا إصابات عنيفة، وإرهاق ذهنى وجسدى يفوق طاقة البشر، وقدرته على الاحتمال ..

وفى ظل هذه الظروف والملابسات، يفترض منه أن يواجه قوتين رهيبتين، فى آن واحد ..

المخابرات الروسية ..

و(المافيا) الروسية ..

باختصار، أن يقع بين شقى الرحى، دون أن يتوقف لحظة عن القتال، بكل ما يملك من عقل وقوة ..

ويا له من جهد !

بل يا له من عذاب !

ولكنه يدرك أيضًا أن شقيقه ليس بالرجل العادى ..

منذ حداثتهما، وهو قادر على احتمال ما لايحتمله أقرانه ..

والدهما أدرك هذا، وانتقى (أدهم)، وانتخبه من بينهما، ليطبق عليه نظريته، فى صنع رجل المخابرات المثالى ..

ولقد نجح تمامًا ..

نجح فى تحويل (أدهم) إلى رجل مخابرات من طراز خاص ومتميز للغاية، وصنع منه رجلاً لايشق له غبار ..

رجل المستحيل ..

(قدرى) كذلك كان يعلم أن الموقف خطير إلى أقصى حد، وأن (أدهم) يعانى مرتين ..

مرة لما أصابه ..

ومرة لما هو آت ..

وفى أعماقه، شعر أنه والدكتور (أحمد) عبء على الموقف كله ..

هما وحدهما غير قادرين على القتال أو الصراع، أو مواجهة القوتين، اللتين تسعيان خلفهم الآن ..

وربما كان هذا ما يدركه أفراد فريق (أدهم) الخاص أيضًا ..

و ...

فجأة ، قطع (أدهم) أفكار الجميع ، عندما انحرف بالسيارة إلى شارع جانبي ضيق ، وأوقفها في ركن مظلم ، ثم قال في حزم :

ـ هيا .. انزعوا عنكم زي رجال الأمن هذا ، واتركوني لدقائق عشر ، دون أن يوجّه إليّ أحدكم كلمة واحدة .

أطاعه الجميع على الفور دون مناقشة ، في حين نزع هو الزي الذي يرتديه ، وتراجع في مقعده ، وأغلق عينيه ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وغرق في تفكير عميق ..

عميق للغاية ..

وطوال ما يقرب من ثمان دقائق كاملة ، لم تصدر عنه حركة واحدة ، باستثناء صدره الذي يعلو ويهبط في بطء وعمق ، دلالة على أنه مازال على قيد الحياة ..

وعلى الرغم من أن الكل كانوا يتطلّعون إليه بمنتهى الاهتمام والانتباه ، إلا أن جميعهم تقريبًا كان يحبس أنفاسه ، ويكتم فضوله ولهفته في أعماقه ، ولاينبس ببنت شفة ..

وفي أعماقه ، وكعادته ، كان (أدهم) يدرس الموقف كله ..

ليس منذ استعاد وعيه فحسب ..

ولكن منذ البداية ..

منذ تم إسناد المهمة الرئيسية إليه ..

مهمة تدمير منظمة (المافيا) الروسية من الداخل ..

راجع كل معلوماته عن تلك المنظمة الإجرامية ..

وعن المخابرات الروسية ..

كل معلوماته بلا استثناء ..

ثم مزج كل هذا بالموقف الحالي ، بكل ظروفه ، وملابساته ، وتعقيداته ، ومشكلاته ..

كان يدرك جيدًا أنه يقود ، ولأول مرة فى حياته ، مجموعة من الرجال والنساء ، لهم اتجاهات مختلفة ومتباينة ، ولايجمعهم سوى ارتباطه الخاص جدًا بهم ..

والخطر الرهيب ، الذى يواجهونه جميعًا ..

وأن كلاً منهم خبير فى مضماره ..

وفى ظروف كهذه ، لايمكن أن يلوح النجاح ، إلا لو أحسن استغلال هذه الخبرات ..

وإلى أقصى حد ..

لذا فقد استغرق فى ذلك التفكير العميق ، طوال الدقائق العشر كلها ، وعقله ينسق الأمور ، ويرتبها ، ويضع كل نقطة فى موضعها ، و ...

« اسمعونى جيدًا .. »

نطقها ، وهو يعتدل بغتة ، فالتفت إليه الكل بلهفة وفضول واهتمام وانتباه ، وهو يتابع :

ـ الموقف الذى نواجهه بالغ الحساسية والخطورة ،

إلى حد لم يسبق له مثيل ، فالخطر يأتى من أمامنا وخلفنا فى آن واحد ، وينبغى أن نتوقع أن (روسيا) كلها تسعى خلفنا الآن ، بنصفيها الطيب والشرير ، فكل رجل شريف هنا يطاردنا ، باعتبارنا خونة وأعداء لوطنه . وكل حقير يسعى خلفنا ، بأوامر من منظمة (المافيا) الروسية ، وهذا يعنى أن كل خطواتنا ينبغى أن تكون محسوبة بمنتهى الدقة ، وأن ننقسم إلى فريقين ، لتشتيت الانتباه ، وضمان فرصة أكبر للنجاة .

غمغم (قدرى) فى انفعال :

ـ سننفذ كل ما تأمر به .

وهتف (علاء) فى حماسة :

ـ كلنا رهن إشارتك يا سيادة العميد .

وربتت (منى) على كتفه مغمغمة :

ـ أنت تعلم أننى إلى جوارك دومًا .

وابتسم الدكتور (أحمد) فى توتر ، وهو يومئ برأسه ، فى حين اكتفى (شريف) و(ريهام) بنظرة تحمل الاحترام والطاعة والتقدير ..

وفى هدوء ، أدار (أدهم) عينيه فى وجوههم ، ثم سأل أفراد فريقه :

ـ أين ينبغى أن نتجه فى رأيكم ؟!

أجابته (ريهام) فى سرعة :

ـ إلى تلك المطار السرى ، حيث تنتظر الطائرة .

أشار (شريف) بسبابته ، قائلاً :

ـ أنا أتفق معها فى الرأى .

أدار (أدهم) بصره إلى (علاء) ، قائلاً :

ـ وماذا عنك ؟!

صمت (علاء) لحظة ، ثم قال فى رصانة حازمة كالمعتاد :

ـ زميلاى يتحدثان عن الخطوة المنطقية ، فى موقف كهذا ، فأول ما ينبغى أن يفكر فيه من فى مثل موقفنا ، هو الفرار من موطن الخطر ، ولأننا نعرف أين ومتى تنتظرنا طائرة ، مستعدة للإقلاع بنا فوراً ، إلى خارج

حدود (روسيا) ، فمن الطبيعى أن نسعى للاستيلاء عليها ، واستخدامها للخروج من المأزق كله ، ولكن ..

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ ولكن ماذا ؟!

اندفعت (منى) تجيب :

ـ ولكن هذا أول ما سيتوقعونه ، بعدما أدركوا أننا قد اخترقنا شبكتهم الأمنية السرية ، وحصلنا على تلك المعلومة .

أشار إليها (أدهم) ، قائلاً :

ـ بالضبط .

هتفت (ريهام) معترضة :

ـ هذا صحيح ، ولكن لو أنهم يعرفون قدراتنا بالضبط ، وهذا حادث بالفعل ، بفضل شهرتك العالمية يا سيادة العميد ، فسيتصورون أننا لن نقدم على هذه الخطوة أبداً .

أكمل (شريف) فى حماسة :

ـ ولو أننا تحركنا فوراً ، دون انتظار للفجر ، واتجهنا إلى ذلك المطار السرى مباشرة ، فسنفاجئهم حتماً ، ويمكننا عندئذ الاستيلاء على الطائرة لحسابنا ، والخروج من هنا ، قبل أن ينتبهوا للأمر .

قال (قدرى) فى عصبية :

ـ لو أنهم أذكياء بما يكفى ، للقيام بدورهم كضباط مخابرات ، فلن يستغرقوا وقتاً طويلاً .

هتفت (ريهام) :

ـ ربما ينطوى الأمر على مخاطرة ، ولكنها أكبر فرصة للنجاة أمامنا .

قالت (منى) فى حزم :

ـ أو للموت .

استمع (أدهم) إليهم جميعاً فى صمت ، ثم لم يلبث أن أشار بيده ، قائلاً :

ـ فى عالمنا ، كل شخص اعتاد التفكير جيداً ، ودراسة الأمر من كل الوجوه ، وتفنيد الموقف بمنتهى الدقة ، وفقاً لقواعد ومعايير دقيقة للغاية ، ولكن كل العمليات الناجحة ، فى كل زمان ومكان ، كانت تنطوى على أمر غير مألوف ، وعلى خروج على القواعد والمعايير التقليدية ، بخطة دقيقة وذكية ، وأفضل ما يمكن أن تفعله ، هو أن تفعل ما لا يمكن أن يتوقعه أو يتصوره أحد .

سألته (منى) فى مزيج من الاهتمام واللهفة :

ـ ألديك خطة بعينها ؟!

التقط نفساً عميقاً ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم عاد يدير بصره فيهم ، قائلاً :

ـ ارهفوا أسماعكم ، وأنصتوا جيداً ، وحاولوا استيعاب كل كلمة .. بل كل حرف ..

وفى ذلك الطريق الجانبى الصغير ، وفى ركنه المظلم ، راح يشرح لهم خطته ، ويوزع عليهم الأدوار ..

وخفقت قلوبهم جميعًا فى عنف ..

فلقد كانت خطته أكثر خطورة من الموقف ذاته ..

أكثر بكثير ..

جدًا ..

* * *

« لست أصدق هذا أبدًا ! »

نطق مدير المخابرات الروسية العبارة فى حدة ، وهو يواجه الجنرال (كواليسكى) فى مكتبه ، ويدور حوله فى عصبية ، مستطردًا :

ـ صحيح أن (أدهم صبرى) هذا ضابط مخابرات أجنبى ، وأنه وفريقه قاتلوا على أرضنا ، دون استئذاننا ، أو إعلامنا ، ودون سند شرعى أو قانونى ، ولكنهم ، حتى فى هذا ، كانوا يقاتلون فى معركة عادلة ، ويهدفون إلى تحطيم الشر ، وسحق رأس الأفعى ، والقيام بما عجزنا أو تقاعسنا نحن عن تحقيقه ،

ولكن أن يسعوا لقتل أحد ضباطنا ، ويعتدون على فريق من فرق أمننا دون مبرّر ، فهذا ما لايمكننى تصديقه قط .

قال (كواليسكى) فى حدة :

ـ ولكن هذا ماتثبته الأدلة والبراهين ياسيدى .

هتف به المدير :

ـ والمبرّر .. ماذا عن المبرّر ؟! لقد أنهوا ماجاءوا من أجله بالفعل ، وأصبحوا فى قبضتنا ، ونحن نستعد لإعادتهم إلى دولتهم ، فى غضون ساعات ، فلماذا يفسدون كل هذا ، ويضعون أنفسهم هدفًا لكل نظم الأمن هنا ؟! أية أسباب تلك ، التى تدفعهم إلى ارتكاب مثل هذه الحماقة ؟!

أشار (كواليسكى) بيده ، قائلاً :

ـ مهلاً ياسيدى .. هذا الملخص تنقصه معلومة بالغة الأهمية والخطورة ، وقادرة على قلب الأحداث كلها رأسًا على عقب ، فهؤلاء المصريون استغلوا وجودهم

فى مبنانا ، ولاخترقوا نظامنا ، وشبكة معلوماتنا ، وحصلوا على ما نعتبره من صميم وعميق أسرارنا ، وكان من الممكن أن يحملوا ما حصلوا عليه إلى جهاز مخابراتهم ، لولا أن كشف رجالنا أمرهم ، وعندما واجهتهم بهذا ، مع فرقة من رجال أمننا ، بعد محاولتهم اغتيال الكولونيل (كوربوف) ، الذى كشف أمرهم بدوره ، باغتونا بانفجار محدود ، وهاجموا رجال أمننا ، وكان ما كان .

حدّق المدير فى وجهه بدهشة مستنكرة ، هاتفًا :

ـ اخترقوا شبكة معلوماتنا السرية ؟! وكيف لم يصلنى أى تقرير رسمى بهذا ؟!

أجابه (كواليسكى) فى حزم :

ـ لقد تلاحقت الأحداث على نحو لم يمهلنا لإرسال التقرير الرسمى ..

ثم أخرج من جيبه مظروفًا مغلقًا ، ناوله إياه ، مستطردًا :

ـ ولكن ها هو ذا .

التقط المدير المظروف ، وفضّه فى سرعة ، وطالع التقرير الرسمى فى اهتمام متوتر ، قبل أن يخفضه ، ويلتقط نفسًا عميقًا ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة يختلف الأمر كثيرًا .

وهزّ رأسه ، مضيفًا فى عصبية :

ـ على الرغم مما سيجره علينا هذا من متاعب دبلوماسية ..

قال (كواليسكى) ، فى سرعة وصرامة :

ـ لدينا ملف كامل بالأدلة والبراهين ، المادية والإليكترونية ، وهذا يجعل موقفنا سليمًا مائة فى المائة .

تنهّد المدير ، مغمغمًا :

ـ أتعشّم هذا .

تألّقت عينا الجنرال ، وشدّ قامته ، وهو يقول :

- سيّدى .. اسمح لى بتولّى هذه العملية .

مطّ المدير شفتيه ، قائلاً :

- ومن يمكنه القيام بهذا سواك ؟!

تألقت عيناه أكثر ، ولم يستطع منع انفعاله ، وهو يقول :

- عظيم .

تطلّع إليه المدير فى دهشة ، قبل أن يميل إلى الأمام ، ويسأله فى قلق :

- هل يسعدك هذا ؟!

أجابه (كواليسكى) فى سرعة :

- لن يبهجنى أن يهربوا بأسرارنا يا سيّدى .

رمقه المدير بنظرة طويلة ، ثم لم يلبث أن تراجع فى مقعده ، مغمغمًا :

- بالتأكيد .

ثم لوّح بيده ، ليسأله :

- ألديك خطة محدودة ؟

رفع الجنرال أحد حاجبيه ، وهو يقول :

- بالتأكيد يا سيّدى .

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى حزم :

- يمكنك أن تقول : إننى أعلم أين هم الآن بالتحديد .

كاد المدير يقفز من مكتبه ، هاتفًا :

- حقًا ؟!

تراجع (كواليسكى) ، ليجيب فى حزم أكثر :

- بالطبع ، ولقد أصدرت أوامرى بمحاصرتهم بالفعل .

لوّح المدير بسبّابته ، قائلاً فى انفعال :

- لا أريد إراقة دماء دون مبرّر .. أصدر أوامرك بضرورة إلقاء القبض عليهم أحياء بقدر الإمكان .

أجابه فى سرعة :

- بالطبع يا سيدى .. بالطبع .

ثم أدى التحية العسكرية ، مضيفًا :

- والآن اسمح لى ببدء عملى فورًا .

أشار المدير إليه ، قائلاً فى توتر :

- هيا .. اذهب .

استدار (كواليسكى) للانصراف ، ولكن المدير استوقفه هاتفًا :

- كواليسكى .

التفت إليه الجنرال ، فأضاف المدير فى حزم صارم :

- تذكّر .. لا دماء .

ابتسم (كواليسكى) ، وغادر المكان ، دون عبارة أخرى ، وأغلق الباب خلفه فى رفق ، ولم يكد يجد نفسه فى الممر الخارجى ، حتى عادت عيناه تتألقان على نحو عجيب ، وهو يتمتم :

- كانت فكرة ذكية ترك سيارة واحدة صالحة يا (يورى) .

ثم هزّ رأسه ، وهو ينطلق عبر الممر فى سرعة ، مستطردًا :

- أما إضافة جهاز تعقب إليكترونى إلى السيارة ، فهو العبقرية بعينها .

قالها ، وأطلق ضحكة قصيرة شامتة ، ثم التقط جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود من حزامه ، وضغط زره ، قائلاً :

- من الجنرال (كواليسكى) إلى فريق المطاردة .. هل حددتم موقع الهاربين بدقة ؟!

أتاه صوت رئيس فريق المطاردة ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول فى حزم :

- دقيقة واحدة على الأكثر ، ونحكم حصارهم تمامًا يا جنرال ، فى انتظار أوامرك .

التقط الجنرال نفسًا عميقًا ، وتألقت عيناه على نحو مخيف ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أمر واحد لابديل له يا رجل .. فور إحكامكم السيطرة عليهم ، أطلقوا النار مباشرة ، دون إنذار أو رحمة ..

هل تفهم .. أطلقوا النار فورًا .

قالها ، وتألقت عيناه ببريق عجيب ..

بريق دموى .

* * *

٩ ـ الدم ..

أغلقت (زوشا) هاتفها الجوال ، وهى تلتفت إلى (يورى) ، داخل كنيسة أثرية قديمة ، فى أطراف (موسكو) ، قائلة :

ـ الجنرال (فاسيلوف) سيصل فى الثالثة صباحًا .

نفث (يورى) دخان سيجارته ، وهو يقول فى برود :

ـ عظيم .

سألته فى اهتمام :

ـ أهو (فاسيلوف) نفسه ، قائد سلاح الحرب الكيماوية ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، فقالت مبهوتة :

ـ وما صلة مثله بنا ؟!

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، قائلاً :



(أغلقت (روشا) هاتفها الجوّال ، وهى تلتفت إلى (بورى) ، داخل كنيسة أثرية قديمة ..

ـ المال يا عزيزتى .. المال .

قالت فى دهشة :

ـ المال ؟! وبم يمكن أن يفيدنا مثله ؟!

نفث دخان سيجارته مرة أخرى ، وقال فى سخرية :

ـ يا له من سؤال ! ألا تدركين مايمثله هذا الرجل من قوة ، فى زمننا هذا ؟! إنه يمتلك ترسانة رهيبة من السلاح الكيماوى .. أقوى سلاح قادر على إرهاب الدول ، كبيرها وصغيرها ، فى زمننا هذا .. السلاح الذى أباد قرى كاملة بضربة واحدة ، دون تدمير طوبة واحدة فيها ، فى اختباراته الأولى(*) ..

بهرها مايقول ، فتساءلت فى توتر :

ـ وهل يمكننا شراء مثل هذا الرجل ؟!

قهقه ضاحكًا ، على نحو استفز مشاعرها ، فقالت فى حدة :

(*) حقيقة ..

ـ ما الذى يضحكك ؟!

نفث دخان سيجارته ، ذات الرائحة النفاذة ، فى قوة وعمق ، قبل أن يجيبها فى سخرية :

ـ كل شخص هنا يمكن شراؤه يا عزيزتى .. ثم إن الجنرال (فاسيلوف) قد وافق على بيع نفسه بالفعل ، وكل ما سيأتى من أجله هو التفاوض على السعر فحسب .

غمغمت بانبهار أكثر :

ـ إلى هذا الحد ؟!

ضحك مرة أخرى ، قائلاً :

ـ وأكثر .

سألته فى اهتمام :

ـ وهل تنوى استخدام الأسلحة الكيماوية ، للسيطرة على المنظمة ؟!

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ يا للسخافة :

هتفت محتدة :

ـ أية سخافة ؟!

أجابها فى صرامة مباغتة :

ـ أن يقتصر طموحك على تفاهات كهذه ، عندما تمتلكين أسلحة رهيبة كالأسلحة الكيماوية .. هذا أشبه باستخدام مدفع صاروخى ، لقتل فأر صغير .

قالت فى عصبية :

ـ ما الذى تطمح إليه إذن .. السيطرة على (روسيا) كلها ؟!

مال نحوها ، قائلاً ، وعيناه تتألقان ببريق جنونى شرس :

ـ وماذا عن العالم أجمع ؟!

هتفت مبهوتة :

ـ العالم ؟!

ثم استطردت فى حدة :

- أى حلم مجنون هذا ؟!

احتقن وجهه فى شدة ، وهبَّ من مقعده بحركة حادة غاضبة ، فتراجعت هاتفة فى سرعة :

- أعنى أن أحدًا لم ينجح فى تحقيق هذا من قبل قط .

صاح بها فى غضب :

- (يورى إيفانوفيتش) يختلف .

قالت مضطربة :

- بالتأكيد .

لوَّح بسبابته فى وجهها ، قائلاً فى شراسة وحشية :

- إياك أن تتحدثى عن الجنون مرة أخرى .

امتقع وجهها بشدة ، وهى تقول :

- بالتأكيد يا (يورى) .. بالتأكيد .

رمقها بنظرة نارية أخرى ، وهو يلقى سيجارته أرضًا فى حدة ، ثم لم يلبث أن استعاد هدوءه بغتة ، وكأن شيئًا لم يكن ، وهو يعود للجلوس على مقعده ، ويشعل سيجارة أخرى ، قائلاً :

- السيطرة على العالم ليست بالحلم المستحيل فـ (أمريكا) تسيطر عليه بالفعل الآن ، عسكريًا واقتصاديًا ، على الرغم من أنها لم تطلق رصاصة واحدة فى سبيل هذا ، أما بالنسبة للأفراد ، فكل ما يحتاج إليه الأمر هو تهديد يثير رعب العالم أجمع ، ويجبره على الاستسلام ، مقابل حياته .

سألته فى استسلام مشفق :

- ألديك خطة لتحقيق هذا ؟!

أجابها فى سرعة :

- بالتأكيد .

ونفث دخان سيجارته بعمق ، ثم أضاف فى شىء من الجذل :

ـ ولكننى أنوى إجراء اختبار صغير ، لمعرفة تأثير تلك الأسلحة الكيماوية على البشر .

شعرت بقشعريرة غير مفهومة تسرى فى جسدها ، وهى تقول :

ـ وعلى من ستجرى الاختبار ؟!

تألقت عيناه ، وهو يجيب :

ـ على المصريين .

قالها ، وقهقه ضاحكًا فى جذل شديد ، وكأنما ألقى دعابة لطيفة ..

دعابة قوامها الوحشية ..

والدم ..

★ ★ ★

« حددنا موقعهم يا جنرال .. » ..

نقل الهواء تلك العبارة ، من جهاز اتصال قائد فريق المطاردة ، إلى الجنرال (جوزيف كواليسكى) ، الذى تألقت عيناه فى لهفة ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

أجابه قائد الفريق ، فى صوت خافت حذر :

ـ تعقبنا للإشارة قادنا إلى شارع جانبى صغير ، ومن موقعنا هذا نلمح السيارة هناك ، فى ركن مظلم منه .

سأله (كواليسكى) ، عبر جهاز الاتصال :

ـ أما زالوا داخلها ؟!

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يغمغم الرجل :

ـ المكان مظلم جدًا ، و ...

قاطعه (كواليسكى) فى حدة :

ـ الأشعة تحت الحمراء .. استخدم الأشعة تحت الحمراء أيها الغبى .

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ بالطبع يا جنرال .. بالطبع .

مضت لحظة أطول من الصمت ، كان الرجل يرتدى خلالها ذلك المنظار الخاص بالرؤية الليلية ، قبل أن يقول :

ـ الصورة واضحة الآن ياجنرال .. هناك حركة بالفعل داخل السيارة .. عدد من الأفراد هناك ، يتبادلون الحديث ..

إنها السيارة نفسها .. هل نتعامل معهم مباشرة ؟!

أجابه (كواليسكى) فى خشونة :

ـ أنت تعرف الأوامر أيها الجندى .

أجاب الرجل :

ـ بالتأكيد يا جنرال .

هتف به (كواليسكى) فى شغف :

ـ لاتغلق جهاز الاتصال يا رجل .. أريد سماع دوى الرصاصات .

ترك القائد جهاز الاتصال مفتوحًا ، وأشار إلى جنوده ، فتقدم الكل نحو ذلك الشارع الجانبى ، وأجهزة الرؤية الليليـة تصبغ كل شىء أمامهم بلون أخضر

باهت غير مريح ، ولكنها تكشف فى وضوح حركة الأفراد داخل السيارة ..

وبإشارة أخرى من قائدهم ، اندفع الجنود نحو السيارة ، وصاح القائد فى صرامة :

ـ أطلقوا النار .

وتألقت عينا (كواليسكى) فى شدة ، وخفق قلبه فى ظفر ، عندما نقل إليه جهاز الاتصال دوى رصاصات مدافع رجاله الآلية ، وهى تنهال على سيارة طاقم الأمن كالمطر ..

ثم دوى الانفجار العنيف ..

انفجار السيارة بكل ما فيها ..

ومن فيها .

انتهى الجز الأول بحمد الله

ويليه الجزء الثانى بإذن الله

(المغامرة الكبرى)